حماية ثقافتنا

إن من أصعب الأمور - كما قلنا - نقل ثقافة أمة لأمة أخرى، كما ننقل الثلاجة وأمثالها بسهولة «لأن هذا يعنى مسخ الأمة المغزوة مسخًا كاملا، ولكن من السهل إضعاف ثقافة أمة من الأمم، وتسليط المعاول المتعددة عليها لفك ارتباط الأمة بها، أو بأهم مقوماتها!.

فثقافة مصر والأمة العربية من أهم وأول مقوماتها: الدين بعقائده وآدابه، والعروبة، ويمكن للمتربصين بمصر، والأمة العربية الإسلامية من الخارج، وطابورهم من الداخل، العمل على إضعاف شوكتها وتقدمها أو القضاء على قوتها وعزتها، إذا نجحوا فى الفصل بينها نفسيًا وعمليًا وبين دينها الذى وهبها قوتها وهيبتها، أو بعبارة مرادفة: «الفصل بينها وبين الأساس الأول فى ثقافتها كما نفصل الأسلاك الكهربائية فيسود الظلام».

«كما يمكن للأمة أن تفعل بنفسها ذلك بنفر من بنيها، أو بموجة من التحلل تسرى فيها» وهو ما عبر القرآن عنه بقوله ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا﴾، (وفى قراءة توضح المعنى: أمّرنا بتشديد الميم أى جعلنا أمراءها ورؤساءها وقادتها) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[1] أى أن هدمها جاء بمعاول من داخلها، وبيد بعض أبنائها. وهذه سنة من سنن الله فى الأمم. ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2].

وإذا انفكت عرى الارتباط بين الأمة - نفسيًا وعمليًا - وبين دينها ونظمه، وتعاليمه المؤثرة فيها، تفتتت ثقافة الأمة، وضعفت بالتالى حضارتها، وتمكن عدوها منها بعد ضعف مقاومتها. وإذا أهملت أمة لغتها وآدابها وموروثاتها القديمة، ولم تعن أو تعتز بها، انفسح المجال تلقائيًا للغة وآداب وتقاليد أخرى لتحل محلها،

(١) الإسراء/١٦.
(٢) الرعد/١١.

وتغزوها على مر الزمن وبالتدريج.

إن الضعف يغرى القوى بالاعتداء، والمكان المنخفض هو الذى تتجه وتندفع إليه الماء، فإذا ضعف ارتباط الأمة بثقافتها ضعفت هى بالتالى، وهاجمتها الأمم الأخرى، وغزت أرضها وقضت عليها، وعلى ثقافتها.

لذلك كان من الضرورى على أمة تريد عزتها أن تتمسك بثقافتها وبمقومات هذه الثقافة، وتنقيها وتقويها وتغذيها، وتحصنها بالعلم، كما نتعهد أجسامنا بالغذاء المناسب، ولا نتناول ما يسممها أو يضعفها، كما نتعهد الأشجار بالسقى والتسميد المناسب لتقوى وتورق وتثمر.. ولا يمكن أن نعطيها من السماد ما يحرق أو يضعف جذورها ويسقط أوراقها، ويشل أغصانها ويمنع إثمارها..

* إن الثقافة للأمة كالنبع الذى يعطيها ماء الحياة والقوة، ولذلك كان من الضرورى لأمة تحافظ على حياتها ومقوماتها، أن تحافظ دائما على صفاء هذا النبع، وعلى استمرار عطائه، وتحول دون تجفيفه أو تلويثه أو تسميمه، حتى لا تقضى على حياتها بأيديها، وأيدى العابثين بها..
* وإذا كانت الثقافة تعنى - كما تقرر - الحالة المعنوية أو الروحية والوجدانية التى تشكل حياة الأمة وحضارتها، وتدفعها دائمًا للرقى والسمو، فإن الإسلام لم يهمل الناحية الأخرى المادية التى يمثلها ما قلنا عنه إنه «المدنية» بما تقوم عليه من علوم وصناعة...

فالإسلام يريد لأمته، أو خطط لها، أن تطير فى الحياة بجناحين: معنوى ثقافى حضارى، ومادى علمى وصناعى، وجعل التوازن بينهما أساسًا لحفظ الحياة، كما يفعل الطائر ويوازن وينسق غريزيًّا بين حركة جناحية حتى لا يسقط ويرتطم ويتمزق، والمعانى والقيم، لابد لها من قوة تحرسها من الاعتداء...

الثقافة والعلم:

ففى الوقت الذى يجب فيه على المجتمع الإسلامى أن يحافظ على مقومات ثقافته، أو على الجانب المعنوى الروحى فى حياته، يجب عليه أن يرعى كل

الرعاية الجانب المدنى أو «المدنية» بكل ما يقويها ويمكن لها. من علوم وصناعة وزراعة إلخ.. لتعيش الأمة عزيزة بقوتيها الروحية والمادية.. فإن هذا الجانب المادى العلمى الصناعى، هو الذى يوفر للأمة: كيف تدافع عن مقوماتها ومثلها وقيمها، أو ثقافتها، كما يوفر لها عزتها وهيبتها، واحترام قيمها.

أليس إهمال هذا الجانب العلمى الصناعى الذى يرقى بالمدنية أو الحياة المادية قد أغرى من وفروه لأنفسهم، أغراهم بالاعتداء علينا، وعلى ديننا ولغتنا وأرضنا، وكل ما لدينا من معنويات وماديات حين تمكنوا منا وصاروا أقوياء عنا؟

أليس الله سبحانه هو الآمر للمسلمين: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم﴾[1]؟

فكيف ينفذون أمر الله هذا ويطيعونه، إذا لم يكونوا على مستوى من العلم والصناعة وأمور الحياة الدنيوية أرقى وأقوى مما عليه غيرهم، ليوفروا لأنفسهم القوة فى كل مجال، ويوفروا الوسائل المادية من أسلحة القتال وغيره، التى يرهبها أعداؤهم، ويعملون حسابها، فلا يحدثون أنفسهم بالتعرض للمسلمين أو خدش كرامتهم؟

* إن بعض الذين أعجبوا بكل ما فى الغرب، وأذهلهم تقدمه وتفوقه فى علومه وصناعاته، قد يزعجهم صوت ينبعث من الفاهمين لدورهم فى الحياة بالحفاظ على ثقافتنا من الغزو.. ويظنون خطأ، أو سوء ظن بالذين يصدر عنهم هذا الصوت، إن هؤلاء الذين يحافظون على ثقافتهم من الغزو، يرفضون العلم والتكنولوجيا أو التقنية الحديثة هكذا يظنون!!
* وأريد هنا أن أطمئنهم كما طمأنتهم مرارًا، فالذين يرفضون الغزو الثقافى حفاظًا على أمتهم ليسوا أغرارًا سطحيين، بل هم أشد الناس تحمسًا ودعوة للعلم والتقنية، أو إذا شئنا قلنا على سبيل التجاوز هم أشد منهم تحمسًا للغزو العلمى التقنى، مع أنه لا يسمى غزوًا، لأنه لا وطن له، وهو شركة أو تراث

(١) الأنفال/٦٠.

الأمم كلها وعلى مر القرون، كل أمة وضعت فيه لبنة.

* ذلك لأن التقدم العلمى الصناعى واجب دينى هو الآخر، كواجبنا فى حماية مقوماتنا أو ثقافتنا من الغزو الثقافى، بل إن تحقيق هذا التقدم المادى واجب دينى، ووطنى، وحياتى، لأنه يوفر لنا العزة فى الحياة، كما يوفر لنا مشتهياتنا المشروعة فيها، كما قلنا ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1] ولابد أن يعمل المسلمون ذلك «فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» كما يقول الفقهاء.

* ومن ذا الذى لا يشتهى أو لا يتمنى لأمته أن تكون هى السابقة لصنع الأسلحة الذرية والصاروخية حتى تكون أقوى أمم الأرض؟

* ومن الذى لا يشتهى أن تتوفر لها التقنية أو التكنولوجيا الحديثة وبأيدى أمته وصنعها؟

* من الذى لا يحب أن يتمتع بكل ما أنتجته القرائح من علم ودور للصناعة، وبيد إخوانه، وهى من «زينة الله التى أخرج لعباده» فوق أنها من ضروريات الحياة القوية؟

* إننا لانكف عن دعوة الأمة إلى أن تسبق دول الغرب والشرق فى علومها وصناعاتها وفى حديث لى إذاعى، بل عدة أحاديث، دعوتها إلى هذا، وكان عنوان حديثى «ألسنا رجالا وهم رجال؟» وفى مقال لى فى هذا المعنى جعلت عنوانه: «الفاشلون فى الدنيا فاشلون فى الآخرة».. فليطمئن - إذن - هؤلاء الذين انزعجوا أو ينزعجون حين نرفع أصواتنا، ونعمل لمحاربة «الغزو الثقافى»، إن كانوا فعلا يخافون من ألا تتقدم الأمة فى علومها وصناعاتها أخذًا من الغرب، وتعلمًا على يديه، ويتصورون خطأً أن وقوفنا فى وجه الغزو الثقافى، يعنى وقوفنا فى وجه الأخذ من الغرب أو الشرق علومه، ونصنع مثل ما صنعوا.. ولا يخشون شيئًا آخر لحاجة فى أنفسهم...

* إننا ندعو إلى التقدم والقوة فى كلتا الناحيتين: التقدم والقوة فى ثقافتنا ومعنوياتنا ومقوماتنا والتقدم والقوة فى العلم وفى التصنيع. مع التنسيق بين

---

(١) المنافقون/٨.

الناحيتين، كما ينسق الطائر بغريزته بين حركة جناحية، ليظل محلقًا إلى حيث يريد «فلا نعمل لتقوية ناحية على حساب الأخرى حتى لا تختل حركتنا فنسقط.

وأحب من إخواننا الذين شربوا من النبع الغربى، ويسيطر على أنفسهم الاتجاه الغربى، ويحبون لمجتمعهم أن يحاكى الغرب، أحب منهم ألا يخلطوا بين التقدم العلمى، وبين الثقافة فى موقفهم من محاكاة الغرب، وألا يسيئوا الظن بالذين يقفون فى وجه «الغزو الثقافى» ولا يجعلهم سوء ظنهم بهؤلاء الأشراف المدافعين عن قيمهم وأصالتهم إلى اتهامهم بالجهل أو التقوقع أو عدم فهم الحياة، أو بالتأخر والرجعية!! لأن هؤلاء هم الذين يمثلون وجه بلدهم الصحيح ولا يلبسون أقنعة تخفى حقيقتهم كغيرهم!

«وهم جنود مصر المدافعون عن أصالتها، وساحة الميدان واضحة أمامهم، وهم لا يحاربون أشباحًا ولا يخلطون بين المفاهيم، بل يعرفون حدودها، ويعطون كل مفهوم حقه من مقاومة له، أو تشجيع عليه وتقوية.

وهم ماضون على طريقهم فى ثبات وإصرار، ليبقوا للبلاد أصالتها الإسلامية العربية، ويدعوا إلى كل ما تصبو إليه من علم وقوة مادية وعلى كل الذين يحرصون على هذا وذاك أن يضعوا أيديهم فى أيدينا، إن كانوا فعلا صادقين فى حرصهم وإلا فليكفونا ويكفوا البلاد شرهم.. ويتركوا القافلة تسير..

والغزو الفكرى:

ونقول أحيانًا ويقول غيرنا: «الغزو الفكرى» فهل المراد به «الغزو الثقافى» أو المراد: الأفكار الواردة علينا عمومًا، نحاربها ونقف فى وجهها. أفكارًا عابرة، مجرد أفكار، أو أفكارًا تحمل سمومًا؟

إن الفكر والفكرة اسم للتفكرِ وهو التأمل.. ففكر فى الشىء؛ بفتح الكاف وتشديدها، أى تأمل فيه، ورجل فِكِّير بكسر الفاء وتشديد الكاف: كثير التأمل - والفكر والفكرة ما يخرج به الإنسان من تأمله وتدبره،أو ما يخطر على العقل

من المعانى والآراء – فى أى أمر من الأمور، ثابتة أو عارضة، فى أمر دينى أو فلسفى أو مادى، صناعى، علمى، سلوكى حركى.. إلخ.

فكل ما يتولد عن التدبر والتأمل فى شىء من الأشياء يمكن أن يقال عنه: فكر، فكرة، وقد يكون فكرًا صائبًا، وقد يكون غير صائب، ويكون فى أمر واحد، أو فى أمور متعددة مشتبكة.

وهو بهذا قد يخرج عن معنى الثقافة، وقد يكون متصلا بها. فما الذى يمكن أن نسميه غزوًا فكريًا ونقف فى وجهه؟

مما لا شك فيه ومن الطبيعى أننا لا نرفض الأفكار الصالحة لنا، أيًّا كانت وكان نوعها ومصدرها «فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها»..

ولكنا نرفض أفرادًا أو جماعة وأمة – ما لا يتفق وصالحنا عمومًا، نرفض الفكر أو الفكرة الضارة بالفرد وبالجماعة فى أى أمر من الأمور.

نرفض الفكر الذى يحمل طابعًا غير طابعنا ومبادئنا، وقيمنا، وتعاليم ديننا، نرفض الفكر الذى يتعارض مع تقاليدنا وموروثاتنا الطيبة، الذى يتصادم مع لغتنا وآدابها، ومع إحساسنا بالجمال.

نرفض أى فكر يهون من شأن عقيدتنا، أو وطننا وأرضنا، أو من جنسنا العربى، ولو كان صادرًا عن واحد منا.

وكثيرًا ما يرفض الواحد منا فكر أخيه أو أبيه، وأقرب الناس إليه، لأنه يرى غيره ومقتنع به.. وكثيرًا ما يغير الواحد منا فكره ورأيه، فى أمر من الأمور، ويقبل على فكرة أخرى.. لكن ليس للإنسان المستقيم السوى أن يغير ثقافته، أو يرفضها، أو يرفض شيئًا منها، لأنها جزء من شخصيته، وذاته وكيانه وملامحه الأصيلة فيه.

فإذا قلنا الغزو الفكرى فإننا نريد الفكر الذى يخدش طابعًا من طابعنا، وركنًا من أركان ثقافتنا، لا كل فكر – نريد رفض الفكر الذى يتصادم مع ثقافتنا وأفكارنا الأصيلة.

وإن كان من الأحسن أن نختصر الطريق ونقول: إننا نقف فى وجه الغزو الثقافى.. لكن لما كان مفهوم الثقافة عندنا لا يزال مفهومًا غامضًا، ويستعمله الكثير منا فى غير موضعه - كما هو معلوم - آثر المتحدثون أحيانًا استعمال لفظ «الفكر» وإن كنا قد احتجنا مع هذا الاستعمال إلى تحديد الأفكار التى نقف فى وجهها، ونخشى غزوها وتأثيرها فينا.

لكن حين يتحدد مفهوم «الثقافة» ويشيع بيننا، يكون من الأفضل أو من الصواب استعمال كلمة «الثقافة» حين نقول: إننا نقف فى وجه «الغزو الثقافى» لأننا بمجرد أن نقول: نرفض سيطرة ثقافة غيرنا، يكون الأمر واضحًا غير محتاج إلى تقييد وتحديد، ولا إلى مناقشة، لأن ثقافة غيرنا لا تتفق طبيعيًا مع ثقافتنا، تمامًا كما نقول: نرفض أن تطغى علينا شخصية غيرنا، أو عقيدة غيرنا، أو نقع تحت تأثير تقاليد وموروثات غيرنا.. نرفض أن تمحى لغتنا، أو تضعف آدابنا.. أو يعبث الغير بوطننا. وهكذا..

لكن إذا قلت: نرفض فكر غيرنا، فإن الأمر لا يسلم لك، دون ملاحظة وتعقيب، ويقال لك: كيف؟ وقد يكون الفكر صالحًا ومفيدًا ومن المصلحة قبوله؟ وحينئذ تحتاج إلى أن تقول الفكر الذى لا يصلح لنا.. أما إذا قلت: نرفض ثقافة غيرنا، فالأمر يسلم لك، ويؤخذ بالقبول لأن قبول ثقافة الغير وهى مخالفة لثقافتنا طبعًا - معناه مسخنا، ومسخ ثقافتنا وشخصيتنا..

ومع ذلك سيظل الباب مفتوحًا لعبارة «الغزو الفكرى»، حتى يتضح مفهوم الثقافة، ويتحدد، ويشيع فى الأذهان، وحينئذ نختصر الطريق، ونعبر باللفظ الذى يعتبر نصًا فيما نريد، وهو «الغزو الثقافى».

وعلى هذا فلا بأس الآن من استعمال «الغزو الفكرى» الذى نحدده فى مفهومنا بالأفكار المغايرة لأفكارنا الأصيلة، لثقافتنا، لشخصيتنا، فينصب الرفض على هذا الفكر، لا كل فكر..

وخلاصة ما أراه، أن التعبير «بالغزو الثقافى» هو أقرب طرق التعبير، إذ يعتبر نصًا فيما نرفضه، أما التعبير «بالغزو الفكرى» فهو صحيح أيضًا، ولكن

يحتاج إلى توضيح، حتى لا يفهم أننا نرفض كل فكر ولو كان صالحًا، فنقول: إننا نريد «بالغزو الفكرى» الذى نرفضه **الفكر الذى يتعارض مع فكرنا الأصيل، مع ثقافتنا**.. على أننا حين نقول نرفض «الغزو الثقافى» فإننا نعنى غزو الفكر وغزو التصرف والعمل والتقليد المضاد لفكرنا وتصرفاتنا وتقاليدنا. فنحن نرفض الرقص المزدوج شبه العارى، لأن ثقافتنا تملى علينا هذا الرفض، وهو عمل وليس فكرًا، وإن كان قائمًا أصلا على فكر اقتنع به الرافضون منا.

أمثلة وتطبيقات :

وأريد هنا أن أعطى أمثلة على الثقافة، والحضارة، على حسب تصورى واجتهادى...

* فمن مكونات ثقافة قدماء المصريين: الإيمان بالبعث بعد الموت.

وقد بنوا على هذا حضارة، ماثلة فيما تركوه لنا من مقابر ومن فن البناء والنحت والتصوير، كالأهرام، والرسوم الرائعة التى تمثل مراحل الحساب، ونتائجه بعد البعث، كما تركوا لنا كنوزًا ومجوهرات مع الأجسام المحنطة التى لم يصل العلم الحديث إلى سرها، وكذلك الحبوب والفواكه المحنطة الباقية على وضعها منذ آلاف السنين، كما تركوا التماثيل الرائعة الناطقة بتفاصيلها..

هذه المظاهر التى على ظهر الأرض، والمظاهر التى اكتشفناها تحت الأرض هى من مظاهر الحضارة المصرية القديمة المنبعثة من ثقافتهم وعقيدتهم فى البعث..

والأدوات والمواد التى استعملوها فى إنشاء هذه الحضارة، فى قطع الأحجار والبناء بها وفى الهندسة وإقامة التماثيل، ومن مواد التحنيط وتكوين الألوان، تمثل المدنية التى وصلوا إليها.

* وكذلك عند الإغريق الذين قامت ثقافتهم على عقيدتهم فى تعدد الآلهة، فقد بنوا على هذه الثقافة حضارتهم فى فن البناء والنحت وصنع وإقامة التماثيل للآلهة المتعددة ولغيرهم، وشكلوا حياتهم وأدبهم على هذه الثقافة.

* وكذلك الأمر عند الهندوس، ولا يزال...

فقد قامت عقيدتهم على تعدد الآلهة، وتقديس مخلوقات طبيعية، وصناعية رأوا فيها قدرة تفوق قدرة البشر فى الخير أو الشر.. وتجلب لهم الخير، أو تؤذيهم وتصيبهم بالشر... فقدسوا القرود لأنها فى عقيدتهم أنقذت إلهًا من آلهتهم، وقدسوا «الكوبرا» لقوتها فى الشر، ورسموها على معابدهم، وقدسوا البقرة، لما تحققه لهم من منافع حتى قدسوا القطار أول ما ظهر... هذه ثقافة لهم خاصة بهم، وقدس بعضهم «نهرو» لعظمته، وقد انبنى عليها عاطفتهم وحضارتهم فى الحفاظ[1] على القرود وتركها تعبث وسطهم، حتى احتجوا على الحكومة لبيعها قرودًا لإجراء تجارب علمية عليها فى الغرب، وهى مقدسة عندهم..

وعاطفتهم نحو البقرة، فرأينا وجه حضارتهم فى عدم ذبحها، وفى التنكيل بمن يذبحها من المسلمين[2]، وفى تبركهم بروثها، حتى رأيت جدرانًا فى بعض البيوت هناك للهندوس، تطلى بهذا الروث للتبرك به... ورأيت مظاهر تفننهم فى الاحتفال بأعياد آلهتهم... وقدسوا النهر عند نقطة التقاء «جمنا، بجنجا»، فى «بنارس» وقامت حضارتهم هناك متمثلة فى تكدس الحجاج لهذه المنطقة، ليطهروا أنفسهم من الأوزار بماء النهر كما يعتقدون.

وقامت عقيدة «بوذا» على أن الذنوب لا يمكن تطهيرها بالاغتسال بماء النهر، إنما يكون التطهر من داخل الإنسان، ولذلك لم نرهم يقومون بمظاهر هذه الحضارة من الاستحمام.

* وفى الإسلام قامت ثقافتنا على الوحدانية فلم تقم بيننا حضارة إقامة تماثيل للآلهة، بل ولا لله ولا للرسول، لأن هذا ممنوع فى الإسلام..

* وقامت ثقافتنا على أن الله سبحانه هو الخالق، الرازق، وهو مصدر كل شىء،

---

(١) لأن لديهم أسطورة يعترفون بها، وهى أن القرود هى التى أنقذت الإله «راما» من الأسر فى جزيرة سيلان «سيرالانكا».

(٢) بل فرض البرلمان قانونًا يحمل الحكومة على دفع معاش لها حين العجز عن العمل، حتى لا يتخلص منها صاحبها، وذلك كما علمت وأنا هناك فى الخمسينات.

وخالق كل شيء وهو بكل شيء عليم، فقامت حضارتنا على التوجه الخالص للإله الواحد، لم نتوجه فى حياتنا مرة لإله الخير، ومرة لإله الشر، ومرة لإله الخصب... وهكذا لا نتوجه لمخلوق ليرزقنا..

* قامت عقيدتنا أو ثقافتنا على احترام كل رسل الله. والإيمان بهم، وقامت على ذلك حضارتنا، فلم يخرج منا فى رسم أو حديث أوكتابة ما يخدش رسولاً من رسل الله.. وينسب إليهم نقيصة، كما فعل غيرنا مما هو موجود فى عدة مواضع من التوراة.

* قامت ثقافتنا على صلة الأرحام، والبر بالقرابات، فقامت حضارتنا بالتالى على ما نراه من مظاهر ارتباط الأسر، بعضها ببعض، واجتماع الأسرة من الأجداد إلى الأحفاد فى منزل واحد وعلى «طبلية» أو مائدة واحدة، وعلى حفاظ الأسرة على المسنين والمسنات، وإحاطتهم بالرعاية اللازمة لهم، وترى من العار عليها: التفريط فى رعاية أب أو جد، وتسليمه لملجأ وعزله فى دار المسنين، كما ترى من العار التنكر فى الحياة للأب أو الجد العاجز عن الكسب بل نساعدهم، وترى القوانين تفرض لهم على القادرين من أبنائهم مثلا نفقة تكفيهم، وهذا كله مظهر من مظاهر حضارتنا الإسلامية المنبثقة من ثقافتنا. ولا ترى له مثيلاً فى حضارة الغرب.

* وترى ثقافتنا تقوم على الحياء والحفاظ على الأعراض، ومن هنا ترى مظاهر الحياة أو الحضارة عندنا تقوم على هذه الناحية، من تحديد علاقة الفتى بالفتاة، والرجال بالنساء، ومن التشدد فى عدم ترك البنات يتصرفن أحرارًا فى علاقتهن بالشبان، وترى التحوط الكامل فى صيانة السمعة من العبث بها فى هذه الناحية، وترى رفض المجتمع المسلم بالمعنى الصحيح للرقص العارى والرقص المزدوج بين الرجال والنساء، فى الحفلات، مماهو معروف فى حضارة الغرب.. والذين يقلدون ذلك عندنا متأثرون بحضارة الغرب، متمردون على حضارتنا.

* ترى حضارتنا قائمة على فرض حدود على اللقاءات والمعاملات بين الرجل

والمرأة، وبين الفتى والفتاة فليس من حضارتنا مبدأ صداقة البنت لشاب[١] ومباركة الأسرة لهذه الصداقة فى البيت وخارج البيت وإتاحة الفرصة لهما للتصرف معاً كما يشتهين بين الجدران، أو على ملأ من المجتمع أحياناً وتحت بصره، مما رأيت أمثلة له فى المتنزهات والشوارع فى الغرب.

ثقافتنا ترفض مثل هذا، ولذا لا تراه فى حضارتنا ولا فى مجتمعنا إلا عند عرائس المسرح من المقلدين للغرب.. الذين يتحركون هنا بخيوط من حضارة الغرب..

* وعلى أساس ثقافتنا تقوم حضارتنا فى بناء البيوت من داخلها وخارجها، وفى المقابلات.

* وعلى أساس ثقافتنا. قامت حضارتنا فى النقش والتصوير، والثقافة الإسلامية الأصيلة قامت على تحريم تصوير الإنسان وكل ما فيه روح وعمل تماثيل له. ولذلك برعت حضارتنا فى رسوم الأشجار وما ليس فيه روح، وعمل زخارف راقية من الأغصان والأوراق، بل من الخطوط العربية.. وذلك قبل أن نخطو خطوة أوسع نحو التشبه بالغير وتحت ضغط ظروف الحياة وضرورتها، وعلى أساس النظرة الفقهية الحديثة من إباحة التصوير والرسم الإنسانى، أو الحيوانى، ومن إقامة التماثيل لاسيما غير المتكاملة، لأن فكرة عبادتها وتقديسها عندنا انتهت واندثرت، وأصبحت المسألة قائمة على الفن وحده، وعلى إبرازه فى صورة أخرى أو عمل نافع آخر، وهو أجدى وأفضل تكريم الإنسان لخدماته، كصورة من صور معرفة الجميل لعظيم من العظماء، ولو أن هذا يمكن إبرازه فى صورة أخرى أو عمل نافع آخر، وهو أجدى وأفضل.

* وعلى أساس ثقافتنا القائمة على الدين وتعاليمه من الحفاظ على العرض، وعلى أن المجتمع حقا على الأفراد، فلا يعملون ما يتعارض مع ثقافته علناً

---

(١) قريبًا فى شهر نوفمبر ١٩٨٣ على ما أتذكر قامت حملة صحفية واستنكار شعبى على قصة تدرس فى كتاب إنجليزى فى مدرسة إنجليزية هنا لأبنائنا وبناتنا تحت عنوان «Pay Frin» أى صديق البنت، وفيها أنهما فى رحلة انفردا فى مكان بعيد عن زملائهما، وقضى كل ما يريد من الآخر فصادرت وزارة التربية هذا الكتاب، وشددت فى رقابتها على هذه الكتب المستوردة من الغرب، بينما ذلك أمر طبيعى هناك.

وأمام الناس، لأن حرية الأفراد ليست مطلقة فى هذه الناحية كما فى الغرب، قامت حضارتنا على هدى هذا، فكانت للمجتمع حقوقه على الأفراد، بحيث لا يفعلون ما يؤذيه معنويًا، ولا ماديًا.. وكانت هناك قيود على حرية الفرد وحدود يقف عندها فى هذه الناحية..

فلا يأتى أفعالا مخلة بالآداب العامة أمام الناس على أنه حر، ولا يوجه ألفاظًا أو يأتى بحركات أو مظاهر تخدش الحياء للفرد أو للمجتمع... ولذلك يعاقب القانون عندنا من يفعل ذلك باعتباره اعتداء على حق المجتمع أو على ثقافته.

والقانون مظهر من مظاهر ثقافة الأمة وحضارتنا. فلا نقبل ثقافيًا ولا حضاريًا - إذن - مظهرًا فاضحًا[1] علنيًا، ولا نقبل أن نصدر قانونًا يبيح اللواط، أو يتيح للأفراد القبلات والأحضان والارتماء بعضهم على بعض بصورة فاضحة عندنا كما فى الغرب الذى يعد ذلك كله من مقتضيات تمتع الفرد بحريته إلى حد معاقبة من يعترض على هذه الحرية..

فحين زرت لندن سنة ١٩٦٩ ورأيت فيها من مظاهر هذه الحرية ما رأيت، فى الشوارع والمتنزهات، هالنى ذلك وفزعت، وصدرت منى بعض العبارات، وتمنيت أن لو كانت معى آلة تصوير لآخذ منظرًا لهؤلاء الحيوانات، وأريها هنا لغواة التقليد المفتونين بحضارة الغرب، وهل يقبلون على بناتهم مثل هذا؟

فأمسك بيدى صديقى المقيم هناك، وضغط عليها وقال لى بسرعة: اسكت فإنها لو شعرا منك بشىء، لاعتبروه ماسًا بحريتهم، وذهبوا بك للقسم ودفعت غرامة لاعتدائك على الحريات!!.. وكان هذا عندى أغرب من ذاك، ثم عرفت بعد ذلك أنهم هناك ذهبوا فى معنى الحرية إلى هذا الحد السائب،

---

(١) ولقد ثار المجتمع على حكم قضائى من عدة سنين لأنه اعتبر الإخلال بالآداب فى السيارة الواقفة على جانب الطريق عملا لا يعاقب عليه بحجة أنه غير علنى!!. وفى القانون الخاص بجرائم العرض والزنا مواد تخالف ديننا وثقافتنا مخالفة صارخة، ولا تزال معمولا بها حتى الآن، وإن كان من المنتظر تغييرها فى القوانين المستمدة من الشريعة التى تمت وتنتظر الصدور. وهذه المواد فى قانوننا الحالى مأخوذة عن الغرب، منذ أيام المستعمر، والسخط عليها من الشعب مستمر..

ولذلك فرض قانونهم غرامة على من يتعرض لهذه الحرية.. ولم يفرضوا غرامة على الهاتكين لعرض المجتمع، ودعنا من عرضهم..

وانطلاقًا من هذه القاعدة، اعتبروا اللواط من حرية الفرد، فهو حر فى نفسه وأباحوه بقانون..

* وحين زرت باريس مررت أنا وأصدقائى على «الكوبرى» المجاور لكنيسة «نوتردام» على نهر السين ذهابًا إلى حديقة صغيرة بجانبها، فرأينا شابا وفتاة يستندان على «سور الكوبرى» وهات يا تقبيل وأحضان «وفى أنوار الليل ورصيف «الكوبرى» ضيق، والمارة يتركون الرصيف حين يصلون إليهما، وينزلون للشارع - هكذا بكل بساطة!!.

وكنت قد أخذت درسًا عن هذا فى لندن، فمررت ومررنا كما يمر الناس، وأنا فى غاية الدهشة، ومكثنا نحو ساعة فى الحديقة وعدنا من الطريق نفسه، فوجدناهما كما كانا.. يعيشان فى لذتهما.. وعلى حريتهما.. هذا أو ذاك مظهر من حضارتهم هناك قائم على ثقافتهم، ونظرتهم إلى مبدأ الحرية... وثقافتنا على عكس من ذلك تمامًا، وبالتالى حضارتنا المنبعثة منها والحمد لله...

* ثقافتهم هناك قائمة على أساس نظرية قديمة عندهم فى المرأة: وهى أنها إنسان شرير فيه روح خلقت لمتعة الرجل، كما قرر مؤتمر لهم[1]، اجتمع للنظر فى المرأة: وهل هى إنسان فيه روح أو لا روح فيه، وانتهى إلى هذا.. وتطورت هذه النظرة على مر القرون، ولكن رسخت فى نفوسهم النظرة إليها على أنها لمتعة الرجل، يعنى: دمية للرجل يلعب بها ويتمتع، ويحافظ عليها، ويدللها، ويزينها من أجل متعته، كما يدلل الإنسان قطته، وكما تعنى الطفلة بدميتها (العروس، وتلبسها ملابس حسنة)، وكما نسمن الخروف لنأكله..

وكان من أنانية الرجل أن يبالغ فى هذا، وأن يوفر لنفسه منها كل ما يمتعه، ومن ذلك جسمها ومفاتنها، مكشوفة أو مغطاة، وعمل على أن يبلغ

---

(١) انظر ص ٢٠٠ من كتابى «الإسلام والغرب وجهًا لوجه» طبع بيروت ١٩٨٢ - المؤسسة الجامعية للنشر وكان هذا المؤتمر فى القرن الخامس الميلادى حيث اجتمع مجمع «ماكون» المسيحى فى فرنسا للبحث فى: هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه أم لها روح؟

من ذلك ما يريد، فكانت المساحيق والملابس والمجوهرات التى يتفنن فى إيداعها كل عام لتكون امرأة مغرية وفاتنة له، وكانت المجلات التى تبدع فى العرض أضعاف المجلات المقامة للرجال، وكان المخترعون لأدوات الزينة لها وموديلات الملابس، وتصفيف الشعر، وتفصيل الأحذية، وشنط اليد إلخ.. وكانت المجلات التى تعنى بهذه الموديلات كلها، والتى تتجدد عامًا بعد عام، لتظهر المرأة للرجل فى صورة فاتنة مرضية لغرائزه.

* وكان من الطبيعى أن تتفنن المرأة فى زينتها من هذا كله، لتبدو فى أعين الرجال جميلة جذابة ممتعة، بما تكشفه من مفاتن جسمها، وما تضعه من مساحيق على وجهها، وما يبدعه «الحلاق» من تنسيق لشعرها...

* وفى بعض السنين وجد مخترعو أو مصممو الأزياء أن طول الثياب يبدو أكثر جاذبية، فأطالوها «الماكسى» فكانت «موضة» حتى جاءت «موضة» أخرى فغيرتها حتى وصلت فى القصر إلى ما فوق الركبة «الميني».

وهكذا يحكمهم أن تكون المرأة فى غاية الجاذبية والإمتاع للرجل، وقد سارعت النساء فى لبس الطويل «الماكسى» عندنا لما جاء الوحى بها من «باريس»، مع أن لدينا القرآن يقضى بذلك، ولم يخضعن له.

* وقد ينسى بعضهم فى الغرب أساس هذا كله، ولكن الأثر ظل باقيا راسخًا فى هذه التصرفات التى ساعدت عليها الحرية..

* تلك هى الثقافة عندهم، وما قام عليها من حضارة، ولو كان ذلك صادرًا فعلا عن تكريم للمرأة لكرموها فى إعطائها حرية التصرف فيما تملكه ولم يجعلها ناقصة التصرف كالصبى والمجنون!

* والإسلام على عكس هذا كله كما نعرف، فالنساء شقائق الرجال، ولسن للمتعة وإرضاء غرائز الرجال ولعبهم بهن، فمن الاعتداء على ثقافتنا وحضارتنا أن يحاول أحد نقل مثل هذا عندنا، ولو أن بعضه قد نقل، وغرتنا تلك الحضارة، وهزت ثقافتنا وحضارتنا مع شديد الأسف!!. وشجعنا أو شجع بعضنا شيئًا من هذا، وأغمضنا عيوننا عن البعض الآخر، مما يهدد جوانب

من عراقتنا وأصولنا التى نشأت عليها أمتنا وعبرت بها القرون...

فديننا أو أصلنا العريق يقوم على تكريم المرأة، وصيانتها من أن تكون لعبة الرجل ودميته، ولها شخصيتها وكرامتها كالرجل.. وليس جسمها والمفاتن منها مشاعًا لأعين الرجال، ولكن ذلك لزوجها خاصة.. وعلى ذلك قامت حضارتنا صيانة لها وللرجل..

ولكى نفهم معًا أساس نظرة الرجل الغربى للمرأة الغربية نحب أن نتأمل فيما أباحه ووفره الرجل للمرأة من حيث إنها متعة له من ناحية، ثم فى احتقاره لها من ناحية أخرى..

فكان للرجل الإنجليزى أن يبيع زوجته حتى عام ١٨٠٥ م وحدد لها ثمنًا بخسًا، وقد حدث أن باع رجل إنجليزى زوجته عام ١٩٣١ م بخمسمائة جنيه، فقدم للمحاكمة، وترافع محاميه عنه، وكان من مرافعته أن القانون كان يبيح ذلك قبل مائة عام تقريبًا...

* وفى القانون الفرنسى: أن القاصرين ثلاثة: الصبى والمرأة والمجنون، وظل ذلك حتى عام ١٩٣٨م فعدلها بتحسين طفيف.

وفى إنجلترا والغرب عمومًا تفقد المرأة قانونيًا استقلالها فى التصرفات المالية فى أملاكها... وفى عام ١٩٧٤ م - نشرت جريدة الاتحاد فى «أبو ظبى» برقية جاءتها من بروكسل عن دراسة أعدتها السوق الأوربية المشتركة تقول:

«لا تزال المرأة البريطانية تتلقى أجرًا أقل من زميلها الرجل فى العمل نفسه، فى حين أن المرأة الدانمركية تكاد تكون قد تساوت فى أجرها معه، ومن المتوقع أن تتساوى المرأة البريطانية مع الرجل خلال عام ١٩٧٥ م»[١]...

«هل تم ذلك أولا؟ والذى يتابع ما ينشر عن ذلك يرى أن المرأة الغربية لا تزال مهضومة الحق».

فالرجل الغربى يحقق لنفسه كل ما يوفر له المتعة بالمرأة، ولكن حين يأتى الأجر، أو التصرف المالى، يضعها فى مقام الصبى والمجنون، ويحرمها من

(١) راجع فى ذلك المصدر السابق ص ٢٠١.

الاستقلال فى التصرفات المالية، ويعطيها أجرًا أقل من زميلها فى العمل نفسه !!..

فحين يكون تصرفها من أجل متعته يطلق لها الحرية، وحين يكون من أجل صرف شيك من المال الذى تملكه فى البنك لا يعطيها هذه الحرية... بل لابد من موافقته !!..

هذه حضارتهم المبنية على ثقافتهم فى جانبها المشترك بين كل أمم الغرب، الموروث من حضارة وثقافة الإغريق والرومان القديمة.

فمظاهر تكريم المرأة عندهم نابعة من حب الرجل لتمتعه بها.. ولذلك تظهر حينًا وتختفى أحيانًا حسب مزاج الرجل...

ولكن مظاهر تكريم المرأة فى الإسلام أو حضارته، قائمة على أساس واحد أصيل، حتى بعض القيود التى أحاطها بها أحيانًا، أحاطها بها من أجل أنها كريمة على الإسلام، وعلى المسلمين فى مجتمعها، ويجب أن تعامل وينظر إليها على أنها لها كرامتها وشخصيتها.. لا متعة للرجل ولعبة حين يحب، ولا ممتهنة له حين يريد.

وهذا هو الفرق بين قانون ونظام يضعه الله لعباده، وبين قانون ونظام يضعه البشر للبشر فمن وراء الأول: الخالق للعباد الرحيم بهم، وكلهم عياله، وفى الثانى الإنسان وله ميوله وعواطفه ونزعاته وعقله القاصر، هو الذى يضع القوانين والنظم.. وتلعب به عواطفه وغرائزه...

الأسس التى تقوم عليها ثقافة المسلم:

ثقافة كل أمة - كما عرفنا - تستمد وجودها من معتقدات الأمة وآدابها ولغتها، وبيئتها وتقاليدها وموروثاتها، وتاريخها. ولذلك اختلفت هذه الثقافات، وكانت «محلية» بخلاف العلم فهو عالمى، وعلى هذا قامت ثقافة المسلم.

والذى يحرص عليه الإسلام فى تربية عقليتنا ونفسيتنا، وفى تكوين وجداننا وفكرنا ألا نقبل قولاً أو رأيًا نبنى عليه أو منه هذا الوجدان، أو هذه الثقافة، إلا إذا كان صحيحًا سليمًا، فهو لا يقبل أى غذاء فاسد له.

«وسلامة القرآن وقطعية ثبوته، أمر مسلم به لدى المسلمين، ولدى المنصفين من غير المسلمين، ولم يحظ أى كتاب منزل بما حظى به القرآن من عوامل صحته، ودقته، وبقائه، وإلى أن يشاء الله، كما أنزل على رسول الله.. وهذا هو العمود الفقرى فى بناء ثقافة الأمة ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (سورة الحجر آية ٩).

أما الحديث: فمنذ أول لحظة، وفى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان أمام المسلمين تحذير من الرسول : «ومن كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» ليمنع الدس عليه.. ولهذا رأينا من المسلمين شدة الاحتياط فى النقل عن الرسول ثم وجدنا الذين عنوا بالحديث قد وضعوا لقبول روايته شروطًا عليه فى غاية الدقة، مما هو معروف فى علم الحديث، وهو العمود الثانى.. ومن هنا كانت سلامة أهم الأصول التى تكون لنا وجداننا وفكرنا أو ثقافتنا..

سياسة التدرج:

والمسلم الذى آمن بمحمد إنسان جديد بين قومه، أراد الله أن تكون له نظرته الخاصة إلى الحياة.. وأن تكون له مواصفاته الخاصة به.

ولذلك وفر الله ورسوله له أدوات استقلال شخصيته، أو أدوات تكوين هذه النظرة فيه.. وكان توفيرها يتم على سبيل التدرج، أعنى لم يتم دفعة واحدة من أول يوم نزل فيه القرآن، لأن طبيعة البناء المادى أو الفكرى هو التدرج فى إقامته، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.. حتى إذا أذنت شمس حياة الرسول بالمغيب كان البناء قد اكتمل، ونزل القرآن يشعر[1] بذلك قبل وفاته بشهور، ويشير الرسول مبينًا لأمته قبيل وفاته فى عرض موته، أن كل شىء قد تم وكمل،

---

(١) فى قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾ المائدة/٣ وقوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ مما فهم منه أبو بكر رضى الله عنه أن أجل الرسول قد اقترب، وبكى ولم تكن آية من هذه الآيات آخر ما نزل على الإطلاق، لأن (اليوم أكملت..) نزلت فى مكة فى حجة الوداع عصر يوم الوقوف بعرفة يوم جمعة، ولما رجع الرسول إلى المدينة نزلت آيات الربا فى آخر سورة البقرة قبيل وفاته..

بعد ما نزلت آخر الآيات وهى آيات الربا، وأنه عليه الصلاة والسلام يتركهم وهو مطمئن، فبين أيديهم معالم الطريق واضحة. «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا: كتاب الله وسنتى».

ولقد كان أول حجر فى بناء ثقافة المسلم هو تربية وجدانه وفكره على الإيمان بالله، وتوحيده توحيدًا خالصًا من كل معانى ومظاهر الشرك، وحتى ينزع من وجدان المسلمين الذين كانوا وثنيين كل أثر للوثنية.. ورافق هذا الحجر الأساسى، أو قام حول هذا العمود الفقرى لثقافة المسلم، عبادات لله تسانده، وأخلاق ونظرة للحياة بكل ما فيها تنسجم مع إيمانه.. أخذًا وعطاءً، ومبدأ وغاية.

فالمسلم واحد من مخلوقات الله فى هذا الكون. لا بد له من أن ينسجم معها، وتكون النغمة التى تصدر عنه فكرًا وعملاً متلاقية مع النغمات التى تصدر عن هذا الكون كله، بحيث تكون كلها فى النهاية نغمة واحدة لا نشاز فيها، يطرب لها الضمير الحى والعقل السليم، ويسعد بها الإنسان فى النهاية بما تحققه له من خير، ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمر ت..﴾[1].

وما دامت هذه وجهة المسلم وغايته وعمله فى الحياة، فلا بد له أن ينسجم مع مخلوقات الله، يتعامل معها فيما خلقه الله لها، ولا يتعنت مع جماد، أو نبات، أو حيوان. بل يستحلبها كل ما فيها من خير، ويجنب نفسه ما فيها من أذى.. والناس كلهم عباد الله إخوة من طينة واحدة، محتاجون إلى الله، فلا يتعالى واحد منهم على الآخر بأصل، ولا دم، ولا مال، ولكن لهم أن يتنافسوا فى تحقيق الهدف الذى خلقهم الله من أجله، تنافسًا هادئًا شريفًا.. يقوم على الجهد والخلق، والقرب من الخالق كما يقول الله:

﴿يـأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2]، ويقول الرسول: «لا فضل لعربى على عجمى،

---

(١) الأنعام آيات ١٦٢، ١٦٣.
(٢) الحجرات آية ١٣.

ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب».

والمسلم إنسان حى منتج لا يعيش خاملًا، ولا يحيا على حساب غيره، بل لابد أن يعمل ويضيف كل يوم جديدًا من علم أو عمل، وهو فى غمرة عمله وكدحه مراقب لله الذى يشرف عليه ويحسب أنفاسه وخطواته، ويحاسبه عليها ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[1].

وهكذا كانت نوعية ثقافة المسلم، ربانية النزعة، خيرية الوسيلة والغاية، هادفة إلى تحقيق رضا الله باتباع منهجه ووسائله التى وضعها للإنسان..

والإسلام يطلق طاقات الأفراد والجماعات بكل أنواعها فى كل اتجاه يعود بالخير عليها، ولا يناقض طبيعة الحياة الخيرة، ولكنه يقف فى سبيل الشر والضر، ليحمى الإنسان من سلبيات الحياة، ويدفع المسلم لأن يحصل على ما استطاع من علم، ومن مادة فى ظل ثقافته الإسلامية.. فلا حجر على طاقاته فى أى اتجاه، ما دام فى دائرة ثقافته هذه.. وهى دائرة واسعة، تضم كل أنواع الخير للإنسان، وتحميه من تسرب الشرور إليه..

جهود وصعاب:

ولم تتكون هذه الثقافة دفعة واحدة فى بدئها، ولم يكن من الممكن ذلك، وهى ثقافة جديدة على المجتمع العربى، الذى ظل طويلًا تسوقه أهواؤه ونزعاته وتخيلاته، فكان من حكمة الله نقله إلى المفاهيم الجديدة شيئًا فشيئًا، وكان ذلك من حكم وأسباب نزول القرآن على دفعات، أو مقسطًا كما نقول فى علم التفسير، حاويًا للتعاليم والتشريعات للحياة الإسلامية الجديدة..

ولم يكن ذلك أمرًا سهلًا، فكان الرسول - قائد السفينة ومحرك دفتها - يقودها ويحركها وسط صخور وشعاب، وتيارات متعددة، وكان عليه أن يمشى بسفينته سالمة حتى تصل إلى غايتها ولقد واجه الرسول قوى المشركين الحربية،

---

(١) التوبة آية ١٠٥.

بعدته الحربية المستطاعة، ونجح فى التغلب عليها فى النهاية، وكانت هناك قوة أخرى تواجهه - حين هاجر إلى المدينة.

وقد بدأ الرسول حياته فى المدينة بالتفاهم والتعايش السلمى مع سكانها ومنهم اليهود.. وكان لليهود قوتهم الحربية، ولكن كانت لهم قوة أخطر، وهى قوتهم الثقافية، باعتبارهم أهل كتاب وأرقى علمًا ممن حولهم من سكان الجزيرة، الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة خاصة، .. كمصدر يعتد به..

فالعرب بدو، لم يتعلموا كاليهود، فكان أى علم يأتيهم من اليهود، ولو قليلاً ولو ضحلاً، ولو اختلط فيه السليم بالمغشوش، بل ولو كان خرافة، يعتبر عند العرب علمًا، مع أن هؤلاء اليهود فى المدينة، كانوا شبه عوام بالنسبة لعلماء اليهود وقد انعزلوا طويلاً عن إخوانهم، لكنهم كان فيهم من يمثل علماء لهم، وعندهم كتبهم التى تحوى كثيرًا من أقوال علمائهم وقصصهم، وخرافاتهم التى نسجوها حول التوراة.

ولذا كان العرب ينظرون إليهم على أنهم أعلى منهم فى المستوى العلمى.. فكانوا كلما احتاج الواحد منهم إلى شىء يعلمه عن الماضى أو الحاضر، يلجأ إلى سؤالهم، وهم يجيبون مما لديهم فى كتبهم، دون تمييز بين غث وثمين، فهو علمهم الذى يثقون فيه.

مثل الذين تعلموا القراءة والكتابة فى القرية عندنا، وصاروا مرجعًا لأهلها الأميين، وهم يخبطون من هنا وهناك، ويقرءون الكتب الخرافية، ويلمون ببعض المسائل الأخرى، ويصبحون لدى أهل القرية من المراجع والمفتين.

فكان اليهود بالنسبة إلى عرب المدينة قبل الإسلام[١] علماء، ومصدرًا للعلم يشبع ما عندهم من أسئلة بإجابات أيا تكن، والعربى يقتنع بها، ويعيش عليها، كما أنهم فى القرية يقتنعون بعلم «الفقى»[٢] قارئ الرواتب، إذ هو الذى يمثل عندهم العلم والعلماء، يستفتونه ويقصون عليه أحلامهم يستنبئونه..

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون - باب التفسير..

(٢) تحضر فى الآن واقعة ذكرها المؤلفون عن أبى حنيفة، فقد طلبت منه أمه العجوز أن يحملها إلى رجل كان نصف أمى، لتستفتيه، وحاول أبو حنيفة أن يقنعها بجوابه، فأبت وحملها إلى هذا الرجل، ولقنه الجواب، فلما سألته أجابها فسرت، وعاد بها ابنها أبو حنيفة.

أخطر جبهة وماذا فعل الرسول معها؟

وقد كان هؤلاء اليهود يمثلون أخطر عقبة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم حين وصل إلى المدينة، وهم أهل كتاب أتباع موسى عليه الصلاة والسلام، والتوراة التى أنزلت عليه، لكنهم كانوا مع ذلك موضع أمل يداعب الرسول، ويرجو أن يؤمنوا به باعتبار ما جاء فى كتبهم من البشارة به.. وباعتبار أنهم أقرب إليه من الوثنيين المشركين. حيث يؤمنون بإله واحد.. وعندهم تعاليم إلهية جاءت بها التوراة.. فعقليتهم تهضم مبدأ الرسالة والرسول والتوحيد، عكس المشركين الذين حكى القرآن عنهم تعجبهم من فكرة الإله الواحد، وأن رسولاً منهم يختاره لهم حتى قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدًا إن هذا لشيء عجاب﴾[١] ثم إن عاطفة المسلمين تميل نحو أصحاب الرسالات السابقة لا من يؤمن بها، ولذلك تعصب المسلمون فى مكة للروم المسيحيين فى حربهم مع الفرس الوثنيين.. ونزلت الآيات تجبر خاطر المسلمين، وتعدهم بأن الروم ستنتصر على الفرس بعد الهزيمة التى منيت بها ﴿غُلِبَتْ الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين﴾[٢].. وزاد من أمل الرسول فى إسلامهم، ما عرفه ممن سارعوا وأسلموا وآمنوا به من أهل المدينة العرب، من أن اليهود كثيرًا ما تحدثوا عن أن نبيًّا سيظهر من العرب وأنهم سيؤمنون به عقب ظهوره، وينضمون إليه ويستعينون به على المشركين من أعدائهم، مما كان سببا فى مسارعة هؤلاء الوثنيين فى المدينة إلى الإيمان به.. مما حكته آية نزلت بعد ذلك ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم (أى من التوراة) وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[٣].

وكان هذا تنديدًا بموقفهم العدائى الذى آل إليه أمرهم بعد فترة من إقامة الرسول فى المدينة.. ولكن حين وصول الرسول للمدينة وبدء حياته فيها

---

(١) سورة ص آية ٥.
(٢) أول سورة الروم.
(٣) البقرة آية ٨٩.

واحتكاكه بسكانها، كانت أبواب الأمل متفتحة فى نفسه وتتوقع إسلامهم وانضمامهم إليه، وقد سارع من أول الأمر بوضع وثيقة سياسية للتعايش السلمى بينه وبين المشركين واليهود..

وكان هذا التفاؤل سر سياسة الرسول مع اليهود والإقبال عليهم أكثر من غيرهم، ومجاملتهم فى بدء عهده بالمدينة، مما يحكيه ابن عباس فى حديث متفق عليه «كان الرسول يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشىء»، وذلك لتأليف قلوبهم وجذبهم إلى دينه.

مظاهر من سياسة الموافقة:

وتمثلت هذه السياسة فى مظاهر متعددة، نذكر منها على سبيل المثال:

١ - جعل القبلة إلى بيت المقدس، بدلاً من الكعبة واستمرار ذلك إلى نحو سبعة عشر شهرًا من وصوله للمدينة كما روى البخارى، ثم تحولت إلى ما كانت عليه من قبل، للكعبة.. لقوله تعالى: ﴿فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾[١]. وقد اتخذ الرسول قبلته لبيت المقدس عند وصوله للمدينة ولم يصححه الله له فاعتبر ذلك إقرارًا من الله.

٢ - صوم يوم عاشوراء: وقد وجدهم الرسول يصومون حين وصل فسألهم، فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى من الغرق فنحن نصومه شكرًا لله، فقال: نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر المسلمين بصيامه[٢].

وسواء كان ذلك بدء صيام الرسول لعاشوراء، أو أن الرسول كان يصومه من قبل، كما جاء فى حديث آخر، فقد كان الجديد فيه أنه أمر المسلمين بصيامه، وكان لذلك وقعه الطيب فى نفوس اليهود.

---

(١) البقرة آية ١٤٤

(٢) كما جاء فى البخارى ومسلم.

٣ - **سدل الشَّعر**[١]: وكان اليهود يسدلون شعورهم، ويتركونها تنزل على ناصيتهم وجبهتهم فى حين كان المشركون يفرقون شعرهم.. فسدل الرسول شعره، كما يفعل اليهود، كما روى ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كان أهل الكتاب (اليهود) يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رءوسهم، وكان صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشىء، وسدل رسول الله شعره، ثم فرق بعد[٢]»..

وفى غير ذلك من الأمور المتروكة له صلى الله عليه وسلم..

تساؤل:

قد ينسى بعض الناس، أو لا يقدرون الظروف التى كان يمر بها الرسول بعد هجرته وتؤثر عليهم ظروفهم الآن ويقولون:

لماذا مال الرسول إلى موافقة أهل الكتاب، وسايرهم فى مثل هذه الأمور؟

لماذا لم يقطع هذا الحبل من أول الأمر، حفاظًا على شخصية المسلمين الاستقلالية؟

وأقول لهم: هناك أمران فى نظرى حملت الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم التعجل بالاصطدام وعلى اتخاذ هذه الأمور التى وافقهم فيها، علما بأن القبلة كانت بتقرير من الله، أو إقرار.

وهذا يعنى أن الاتجاه إلى هذه السياسة باركه الله. وهذان الأمران هما:

الأول: أن الرسول صلى الله عليه وسلم - كما قلنا من قبل - كان يأمل أن ينضم هؤلاء الذين تحدثوا علنًا عن مجيئه، بل كانوا يتوعدون العرب بانضمامهم إليه إذا جاء، كان يأمل فى أن ينضموا إليه ويتبعوه، كما كانوا يقولون من قبل.

وكل إنسان فى موقف الرسول، وإزاء هذه الظروف، كان لابد له أن يأمل

---

(١) يقال: سدل شعره من باب نصر أى تركه وأرخاه على ناصيته، وهو يقابل فرق الشعر ورفعه إلى أعلى.

(٢) حديث متفق عليه وظاهر أن السدل كان فى أول مقام الرسول بالمدينة بدليل قوله «ثم فرق بعد»..

ما أمله الرسول. وهذا الأمل لم يكن يتفق معه أن يعجل الرسول الاختلاف معهم، وإزعاجهم بمخالفتهم فى مثل هذه الأمور التى لا تضر.. بل كان من المناسب معه، هذه الموافقة، حتى قال ابن عباس: «إنه كان يحب موافقة أهل الكتاب» وهو فى رأيى يتحدث عن الفترة الأولى بالمدينة، فربما يأنسون إلى الرسول ويسلمون.. وكان هذا - كما أفهم - من سياسة تأليف القلوب، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعتمد أحيانًا عليها، كوسيلة من وسائل جذب الناس إلى الإسلام، مما عرفناه بمعاملة «المؤلفة قلوبهم» التى نزل بها القرآن فيما بعد..

الثانى: أن الرسول حين وصل للمدينة قابلته مشكلات كثيرة، كان لابد أن يحلها ويتغلب عليها، وكان لابد له أن يرتب البيت أولا - كما يقال -، وهذا يقتضى أن يكون آمنا من الداخل.. ولهذا عجل بعقد معاهدة بينه وبين مخالفيه من المشركين واليهود، يمكن أن نسميها بلغة عصرنا:

«معاهدة تعايش سلمى ودفاع مشترك»

وزاد على هذه المعاهدة، عامل جذب أكثر لليهود، فقد كانت عينه على اليهود، يأمل فى إسلامهم - كما قدمنا - ولم يكن من الحكمة فى شىء أن يبدأ الرسول عهده فى المدينة بالاصطدام، والمهاجرون مثخنون بجراح الهجرة، والأنصار مشغولون بتضميد جراحات إخوانهم، وبحياتهم. فمبادأة اليهود بالخلاف معهم، وإقامة حواجز، أو تقوية حواجز نفسية بينهم وبين الدين الجديد، لم يكن فى مصلحة الرسول وسياسته، فى تدبير شئون مجتمعه، ولم شمله. بل كان العمل على التخفيف من حدة الحواجز النفسية مع اليهود، أمرًا مستحبًّا ومطلوبًا فى هذه الفترة.. لعل وعسى، لاسيما أنها كانت فى أمور لا تجرح الأصول، وتدخل فى باب السياسة الشرعية..

وهذه سياسة التدرج:

ولا يمكن أن نغفل عن سياسة التدرج التى مر بها الرسول فى دعوته ونزل القرآن على أساسها.

* فقد كانت مرحلة مكة لها ظروفها، ولها سياستها المناسبة لها، وهى سياسة الصبر والعفو إلخ..
* ولو اتبع الرسول غير هذه السياسة التى كان الله سبحانه يوجهه إليها، ما كانت نتيجتها محمودة، بل شرًّا عليه وعلى الدعوة..
* والمرحلة الأولى بالمدينة، كانت لها ظروفها الخاصة بها، والتى اتخذ لها الرسول ما يناسبها أيضًا، وأى قائد - ولو غير الرسول - إذا كان متصفًا بالحكمة، لا يمكنه أن يبدأ حياته فى مقره الجديد بمناوشات مع أهل البلد الأصليين، وأى قائد - ولو غير الرسول - يأمل أن يجد فى بعض أهالى البلد التى نزلها، أنصارًا له مرتقبين من قبل مجيئه، لابد أن يجاملهم، ويعمل بكل الوسائل على أن يجذبهم إليه، ليزيدوا من قوته..

وقد كانت السياسة فى فرض العبادات نفسها تسير كذلك بالتدريج وعلى خطوات.. وكذلك فى بعض التشريعات الأخرى، كما حصل فى تحريم الخمر.. وكما حصل فى أمر الجهاد، وفى غير ذلك، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اتبع هذه السياسة مع الذين كانوا يسلمون، ويشترطون إسقاط بعض الفروض عليهم، كما طلب وفد ثقيف أن يعفيهم من الجهاد، والزكاة، والصلاة، وألا يستعمل عليهم غيرهم فقال لهم: «لكم ألا تُحشروا (فى الجيش)، ولا تعشروا (فى الزكاة)، ولا يستعمل عليكم غيركم، ولا خير فى دين لا ركوع فيه»[1]

فهو لا يوافقهم على إعفائهم من الصلاة، فى حين وافقهم على غيرها، سياسة.

وروى أن الرسول قال بعد ذلك: «سيصدقون ويجاهدون». فسياسة التدرج، كل مرحلة بظروفها. مبدأ مقبول شرعًا وعقلا ومعمول به، حسب الظروف المحيطة، لاسيما فى بدء إنشاء أمة وإقامة دولة... فلا يعاب على الرسول الآن -

---

(١) عن كتاب اجتهاد الرسول للشيخ عبدالجليل عيسى ص ٨٩ طبعة وزارة الأوقاف ١٩٧٩ والحديث فى مسند أحمد.

وكان يبنى مجتمعًا جديدًا بكل مقوماته - أن يبنى مجتمعه بالتدرج، وأن يمر فى بنائه بمراحل، حسب الظروف التى تحيط به، وكل نظام جديد حتى الآن يتبع سياسة التدرج.. بل الذى يمكن أن يعاب عليه، أو على غيره من الإصلاحيين، وبناة الأنظمة الجديدة. أن يتعجلوا ويعتمدوا على الطفرة، ولا يراعون نفسيات المجتمعات وظروفها - لأنهم حينئذ يعرضون أنفسهم للفشل..

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يتخذ فى هذه الفترة السلمية قرارًا أو عملا يختلف مع الأصول التى يعمل بها، أو يختلف مع ما جاء فى القرآن الكريم. فكان يحب موافقتهم فيما لم ينزل فيه توجيه خاص من ربه، ولم يكن اتجاهه لبيت المقدس مخالفة لنص، بل كان مخالفة لعمل اتخذه وهو فى مكة من اتجاهه فى صلاته للكعبة، وكان هذا أمرًا طبيعيًا، لأن الكعبة محل تعظيم العرب جميعًا حوله. فلم يكن واردًا أبدًا التفكير فى غيرها وهو فى مكة.

لكنه لما هاجر، ووجد اليهود هناك، وعنده أمل فى إسلامهم، للظروف التى أشرنا إليها، فكر فى تأليف قلوبهم، واتجه لبيت المقدس، وأقره الله على هذا الاتجاه، ولم ينزل عليه شىء يصححه له.

وكان هذا إيذانًا له فى تأليف قلوبهم، بموافقتهم فى بعض الأمور. واستمر ذلك فترة من الوقت. كانت كفيلة بحدوث تغييرات فيها، تقتضى سياسة جديدة، كما كانت كفيلة بكشف نواياهم.

معالم تطور جديدة:

فبعد أن تفرغ الرسول لعلاج المشكلات التى قابلته بعد الهجرة مباشرة، ونجح فى ذلك، وبدأت بعض التغييرات تظهر، وبدت على المسلمين مخايل التماسك والقوة عن ذى قبل، حتى فكر الرسول فى أن يوجه هذه القوة الناشئة إلى تذكير أعدائه المكيين به، وبأنه لم يضعف كما تخيلوا، فأخذ يرسل السرايا لمناوشتهم، حتى وصلت سرية منها إلى قرب مكة، وقتلت واحدًا فى آخر جمادى الثانية، كما ظن رئيسها عبدالله بن جحش، وادعى المشركون أنه كان أول رجب، واطلقوا دعايتهم ضده، بأنه انتهك حرمة الشهر المحرم، فرد الله عليهم دعايتهم

بآية نزلت تقول: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه...﴾[١] الآية «وكان قد مر على الرسول فى المدينة نحو خمسة عشر شهرًا حينئذ.. المهم أن الوضع فى المسلمين تغير خلال هذه المدة، وأصبحت لهم قوة نوعًا ما. سنجدها بعد شهرين تقريبًا من هذا الحادث، تخرج للقاء قافلة قريش بقيادة أبى سفيان فكانت «واقعة بدر» فى رمضان من السنة الثانية..

ولقد كانت هذه المدة كافية لكشف معالم الطريق أمام الرسول فيما يختص باليهود، وأمله صلى الله عليه وسلم فى إسلامهم، ولإقامة الحجة عليهم، بانتهاج خطة المسالمة معهم..

وقد وجد الرسول أن هذا الأمل لم تظهر له بشائر فيهم، بل ربما لمس شيئًا خلاف هذا من نفسيات اليهود وحقدهم تجاهه، حين بدت مظاهر القوة على المسلمين، فنزلت التشريعات المناسبة للطور الجديد.

تغيير القبلة:

فنزلت الآيات بتغيير القبلة إلى الكعبة، استجابة لما جاش فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم حينذاك ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾[٢] وكان ذلك فى نحو الخامس عشر من شعبان من السنة الثانية.

وكان انتظار الرسول للوحى فى أمر القبلة دليلا على أنه لم يتجه لبيت المقدس إلا بإذن الله له أيضًا، ولو لم ينزل بذلك قرآن، وقد هاج اليهود لهذا وثاروا، وغلت نفوسهم بالسخط فعلا على الرسول، مما سجلته الآية قبل هذه فى بدء الكلام عن هذه الحالة.. ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها﴾. والناس هنا المراد بهم اليهود، وقد ظهروا على حقيقتهم،

---

(١) البقرة، ٢١٧ وكان العرب يعظمون حرمة شهر رجب على أنه من الأشهر الحرم التى يتوقف فيها القتال والاعتداء، وينعم الناس فيها بالسلام حتى لو قابل أحد قاتل أبيه فإنه لا يمسه فيها بسوء بالإضافة إلى ثلاثة أشهر هى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

(٢) البقرة ١٤٤.

وانقطع بذلك أمل الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم نهائيًا، كما ظهر أنهم متعصبون لأنفسهم ودينهم، تعصبًا يعميهم عن الحقيقة، وينسيهم ما كانوا قد قالوه من قبل لعرب المدينة: من أن نبيًا سيظهر منكم، وننضم معه عليكم..

وكان الله سبحانه يعلم هذه النتيجة بلا شك، لكنه أراد أن تتم التجربة، وتقوم الحجة على هؤلاء بأنهم متعصبون لأنفسهم، لا يهمهم حق، ولا يؤثر فيهم موقف الرسول المهادن لهم، والموافق لبعض ما يحبون أحيانًا، لينكشف موقفهم أمام الناس، ولا تكون هناك نقطة يتمسكون بها على رسول الله. فلو أنه بدأ معهم بالمخالفة والمناوشة، لاتخذوا ذلك حجة لهم وقالوا: ماذا نعمل لرجل بدأ حياته. بمناوشتنا والتهجم علينا وعلى ديننا؟.

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطة الحكيمة التى اتبعها معهم، قطع عليهم طريق التمحك، لاسيما وقد استمر تنفيذ هذه الخطة سنة ونصفًا تقريبًا، فإذا انضم إلى هذا ما كانوا يتوعدون به عرب المدينة من ظهور نبى منهم أى من العرب، لم يكن لهم أى عذر يتمحكون به فى عدم انضمامهم للرسول واعترافهم به.. وظهر تعنتهم بذلك وانكشفوا.. وكان من الضرورى تغيير الموقف معهم. كما كان من الضرورى حدوث تشريعات تتفق والطور الجديد مما يتصل بثقافة المسلم ووجدانه.

فى القتال:

وكان من ذلك، الإذن للرسول بالقتال، دفاعًا عن أنفسهم، واقتصاصًا من المعتدين عليهم. وكانت الأوامر قبل ذلك فى العهد المكى تصدر من الله له بالصبر والعفو والتحمل.. واستمرت سارية فى المدينة، حتى ظهرت استطاعتهم الدفاع عن أنفسهم فأذن الله لهم بالدفاع عن طريق الحرب ﴿أذن للذين يقاتلون (بفتح التاء أى أذن لهم بالقتال) بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[1].

---

(١) الحج/٣٩، ٤٠

وكان ذلك قبيل موقعة بدر، وبدأ بذلك وجدان المسلم يتكون فى رفض أى ضيم ينزل به، وعدم الصبر عليه. لاسيما وقد نزلت بعد ذلك آيات تأمرهم بالقتال - لا مجرد الإذن - دفاعًا عن أنفسهم ودينهم.

فى صوم عاشوراء وصوم رمضان:

مر بنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، وجد اليهود يصومون يومًا فسألهم عنه، فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى من الغرق فنحن نصومه شكرًا لله فقال:نحن أحق بموسى منكم، فصامه وأمر المسلمين بصيامه، كما رواه البخارى ومسلم[1] فلم يكن هناك صوم مفروض إلا صوم يوم عاشوراء.

لكن فرض الله بعد ذلك صوم رمضان فى شعبان فى السنة الثانية من الهجرة فبين الرسول لأصحابه أنه لم يعد صوم عاشوراء فرضًا، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه، كما روى الصحيحان وظهر بذلك نوع من أنواع المخالفة إذ صار

(١) تعرض العالم الفلكى الشهير «محمود باشا الفلكى» المولود سنة ١٨١٥ والمتوفى سنة ١٨٨٥م فى كتابه «التقويم العربى قبل الإسلام وتاريخ ميلاد الرسول وهجرته» طبعة مجمع البحوث الإسلامية وترجمة محمود صالح الفلكى تعرض لضبط يوم وصول الرسول إلى المدينة ومعنى عاشوراء، وهل كانت فى المحرم كما نعرف الآن، وذكر ما قاله العالم الإسلامى الشهير (البيرونى) فى هذا من ص ٢٠ (تحديد وقت الهجرة)، وهو بحث طويل نوعًا. خلاصته أن عاشوراء التى ذكرت فى الحديث ليست عاشوراء العاشر من المحرم كما نعرف الآن، لأن الرسول وصل المدينة حول العاشر من ربيع الأول، وكان وصوله يوافق يوم ١٠ تشرى من التقويم اليهودى، وهو يوم كيبور الذى أمرهم الله بالصوم فيه، وهو يوم الغفران عندهم الذى وقع فيه هجوم الجيش المصرى سنة ١٩٧٣. فهو عندهم عاشوراء لأنه يأتى دائمًا يوم ١٠ من شهر «تشرى». وكان حينئذ يقع فى شهر ربيع الأول. لا فى المحرم.. وهذا يعنى أن الرسول لما صامه لم يكن يصوم يوم العاشر من المحرم.. وأن تسميته عاشوراء حينذاك كان مجاراة للتسمية اليهودية لأن العاشر من شهر تشرى (عاشوراء اليهود) لم يقع فى المحرم إلا قبل ذلك ببضع سنين، أو بعدها بنيف وعشرين سنة. فمن أين جاءت تسمية العاشر من المحرم بيوم عاشوراء؟ يقول البيرونى فى كتابه الآثار: وقد قيل أن عاشوراء عبرانى معرب «عاشور» وهو العاشر من شهر (تشرى)، عند اليهود الذى صومه «صوم الكبور»، وأنه اعتبر فى شهر العرب فجعل فى اليوم العاشر من أول شهورهم (المحرم) كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود . كما تعرض «البيرونى» لإبطال قولهم إنه يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى، لأن التوراة نطقت بخلافه، إذ كان فى السابع من أيام الفطير عندهم بعد قدوم النبى وهو يوافق شهر رمضان.. إلخ.. فليراجع البحث فى مكانه لفائدته.. فإنما ذكرت ما ذكرته هنا لألفت النظر إليه..

للمسلمين أيام خاصة يصومون فيها وهى شهر رمضان.

﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾[١].

ثم مرت السنون حتى أمر الرسول بمخالفة اليهود فى صورة صيام هذا اليوم الذى صار سنة فقال: صوموا يومًا قبله أو يومًا بعده، حين تصومونه، لتظهر المخالفة واضحة لصوم اليهود، ولا يظهر المسلمون كأنهم تبع لهم، وكان ذلك واضحًا فى أمر الرسول حين علل أمره هذا التعليل.. وخالفوا اليهود.[٢]

وتبع فرض صيام رمضان ما سنه الرسول وفرضه على المسلمين، من إخراج زكاة الفطر، ثم اتخاذ أول شوال عيدًا لهم.

والذى نلاحظه أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فترة المهادنة والموافقة لليهود وكانت فترة الأمل وترتيب البيت من الداخل، وما أسفرت عنه هذه الفترة من سوء موقف اليهود، ومن نجاح الرسول فى ترتيب وتنظيم المسلمين، وتوفير بعض مظاهر القوة فيهم.

بعد هذه الفترة – وكانت ضرورية أو شبه ضرورية، اتجه الرسول إلى العناية بتربية وجدان المسلم تربية استقلالية عن اليهود حتى فى مظاهر حياتهم، فصدرت منه أوامر وإرشادات كثيرة بمخالفتهم.

فى الأعياد:

فقد حرص صلى الله عليه وسلم على أن يجعل للمسلمين أعيادًا خاصة بهم تخالف ما كانوا عليه فى وثنيتهم قبل الإسلام، وتخالف كذلك أعياد اليهود واحتفالاتهم، حتى يقطع بذلك صلة المسلمين بالماضى، ويقضى على مشاركتهم المشركين فى عادتهم القديمة، ويقطع كذلك صلتهم باليهود فى أمر هو من أهم خصائص الأمة، أية أمة كانت...

فالأعياد فى كل أمة، مظهر شديد الصلة بثقافتها ووجدانها، لصلتها بمعتقدات

---

(١) البقرة ١٨٥.

(٢) كما رواه الإمام أحمد.

الأمة أو تاريخها.. ولها آثارها فى نفسيتها، لما تجىء به من فرحة، وما يصاحبها من حفلات..

فالأعياد عند المسيحيين مستمدة من معتقداتهم ودينهم، والأعياد عند الهندوس كذلك، وهى عندهم متعددة بتعدد آلهتهم - وهكذا - لكل أمة أعيادها المتصلة بثقافتها ووجدانها..

وكان الأمر كذلك عند المسلمين، فحين كره الرسول لهم متابعة غيرهم فى أعيادهم حفاظًا على شخصيتهم، اختار البديل لهم بتوفيق الله ورعايته، عيدين متصلين اتصالا وثيقًا بدينهم وعباداتهم، كبديل لأعيادهم فى الجاهلية.

يروى أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما (أعياد النيروز تقليدًا للفرس) فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله أبدلكما خيرًا منهما: عيد الفطر وعيد الأضحى»[١].

وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم حكمة بليغة فى التربية الاستقلالية للأمة، لأن الأعياد لها شأن كبير فى التأثير على نفسيتها وعاداتها.. وكان من السهل على المسلمين الاستجابة لأنه وضع لهم البديل. وهو مرتبط بدينهم وشعائره، ووضع لهم مظاهره وما يفعلونه فيه، من قربات وعادات وأباح لهم اللعب فيه، والتفريج عن النفس بما لا يخل بأدب من آداب الدين كشرب الخمور الآن وغيرها.

وفى ذلك يأتى قول الرسول لأبى بكر لما زجر جاريتين أو فتاتين كانتا تغنيان ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها فى بيت الرسول وهو راقد فى ناحية من الحجرة، فقال له: «دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا، وليعلم يهود أن فى ديننا فسحة»[٢].

ومن طبيعة الناس فى الأعياد أن تلعب وتفرح فأرضى الإسلام هذه الطبيعة فى

---

(١) من اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٨٤ مصدر سبق ذكره، رواه أبوداود وأحمد والنسائى..
(٢) رواه البخارى ومسلم.

حدود آدابه، ولذلك كان من السهل جدًّا على المسلمين أن ينتقلوا سريعًا إلى أعيادهم.

ما نفعله الآن:

وهذا يؤدينا بالتالى إلى الاستطراد والكلام عن مشاركة المسلمين الآن أهل الغرب أو غيرهم فى مظاهر أعيادهم كعيد الميلاد، وعيد رأس السنة الميلادية، أو عيد «راما وكرشفا» فى الهند، أو غير ذلك من أعياد غير المسلمين والمسلمون فى الهند لا يحتفلون بأى عيد من أعياد غيرهم، ولذا نركز هنا على عيد الميلاد ورأس السنة، مما جرى على الاحتفال به المسيحيون الغربيون، وجرينا وجرت بعض البلاد الإسلامية على الاحتفال بهما بصورة بارزة، كأننا مجتمع غربى، وبعناية تشبه عنايتنا بأعيادنا، إن لم تكن أكثر وأبرز، كما نراه عندنا فى بعض الشوارع والمحلات والفنادق والتليفزيون إلخ.. ورأيته فى زيارة لى لباكستان فى ديسمبر ١٩٧١، ويناير ١٩٧٢ فى فندق كبير فى كراتشى، حيث نزلت فيه مع شيخ الأزهر المرحوم الدكتور الشيخ محمد الفحام[١].

فهذه الصورة التى تجرى عندنا وفى بعض البلاد الإسلامية أيضًا صورة مخالفة تمامًا لتعاليم الإسلام وثقافته، وتدل على ضعف واضح فى ثقافتنا وشخصيتنا وعلى تبعية فينا واضحة كذلك لمظهر من مظاهر الغرب وحضارته، وما يتبع ذلك من تأثير على ثقافتنا ونفسيتنا. ونحن نجل المسيح ونؤمن به، ولكنا منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وأيام قوة الدولة الإسلامية، كما أعرف لم نتخذ من هذه الأيام عيدًا، وإنما لنا أعيادنا الخاصة بنا، وإذا كنا قد أحدثنا كمسلمين احتفالات بمناسبات، فلها صلتها بديننا وتاريخنا وتراثنا، ولها أثرها فى تربية النفوس، وتذكيرها برسولنا وتعاليمنا. وبمواقف ماضية مجيدة من مواقفنا التاريخية، ومن شأن ذلك أن يبث فى النفوس العبرة والاعتزاز والنخوة، كما قال

---

(١) وفى زيارة لى للجزائر بدعوة منها فى مارس ٧٢ علمت أن الرئيس بومدين (عليه رحمة الله قد أمر سنتها بعدم إبداء أى مظهر للاحتفال بهذه الأعياد ولا يزال هذا الأمر جاريًا كما علمت فى يناير ١٩٨٤، وقد حمدت له هذا التوجيه وقتها وله أجره وأجر من عمل به بعده.

الله عن قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾[١] وقال لرسوله ﴿وكلًا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾[٢].

فهى احتفالات واجتماعات تتصل بتاريخنا، ونبث فيها العبر والعظات، ونذكر المسلمين، والله يقول ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[٣] وذلك مثل رأس السنة الهجرية، ومولد الرسول والإسراء والمعراج.. ويوم بدر، وفتح مكّة.. إلخ.

أما مشاركتنا لأمم أخرى غير أمتنا ولها دين غير ديننا، وثقافة وحضارة غير ثقافتنا وحضارتنا، وفى مناسبة متصلة بأديانها فذلك هو الانحراف والتبعية دينيًّا وثقافيًّا وحضاريًّا، لأنه تشبه بغيرنا فى أخص خصائصه، والرسول يقول (من تشبه بقوم فهو منهم) وتعليماته كلها تؤثم الذين يتشبهون بالغرب مثل هذه المناسبة لأن التشبه سببه الإعجاب بالغير، والإعجاب غالبًا ما يؤدى إلى التنازل عن أشياء عندنا ربما تكون من أخص خصائصنا، فتهتز شخصيتنا.

ويقول ابن تيمية فى هذا: (وكما يتشبه بهم فى الأعياد، لا يعان المسلم المتشبه بهم فى ذلك، بل يُنهى عنه، ومن أهدى للمسلمين هدية فى هذه الأعياد مخالفة للعادة (أى عادته) فى سائر الأوقات غير هذا العيد لم تقبل هديته)[٤].

فماذا يقول ابن تيمية الآن فيما جرينا عليه من احتفالاتنا بأعيادهم ومن فعلنا للهدايا فى هذه المناسبة وموقفنا منها.[٥]؟

---

(١) سورة يوسف ١١١.

(٢) أواخر سورة هود١٢٠.

(٣) وآخر سورة الذاريات ٥٥.

(٤) ص٢٢٧ من المصدر السابق.

(٥) قال من اثق بصدق روايته أن فندق كذا وهو فندق حديث متوسط قد خصص للهدايا مبلغ مئات الآلاف، وبعض هذه الهدايا هدايا لبعض كبار الشخصيات تقدر الواحدة منها ببضعة آلاف من الجنيهات وطبعًا غيرهم كثير، ممن يحصلون على هذه الهدايا من هنا أو هناك، فكم تتعلق قلوبهم وقلوب أسرهم بهذه المناسبة؟ فوق أنها تعتبر رشاوى فى صورة هدايا، لبعض من يملكون من مصالحهم شيئًا، كما هو معروف بدليل ما نلمسه من أن هؤلاء لو ابتعدوا عن مراكزهم لا تصلهم هذه الهدايا.

وقد يبدو قول ابن تيمية غريبًا وثقيلاً على نفوسنا الآن.. والحق دائما ثقيل على النفس وأهوائها، ولكن تدبرنا أن مثل هذه المظاهر تشدنا نفسيًّا إلى مناسبتها، وإلى أهلها الأصليين، وإلى الإعجاب بهم وبمناسباتهم، وتقليدهم حتى فى عبثهم، وأن هذه الهدايا قد تظل فى اليد أو فى البيت والمكتب تذكر الإنسان بمناسبتها، وتجعله ينتظر بقلب مفتوح عودة هذه المناسبة، ويتعلق المسلمون بغير مناسباتهم، فى الوقت الذى لا تأخذ فيه مناسباتهم الدينية عشر هذا الاهتمام والترقب – لو تدبرنا هذه الحالة النفسية التى تحدثها الهدايا، لسهل علينا فهم قول ابن تيمية.

وإلا فلماذا لا يتخذ المسلمون من مناسباتهم الدينية مثلا فرصة لإظهار مثل هذا الفرح، والعناية بها، وتبادل مثل هذه الهدايا الباهظة الثمن أحيانًا؟ ولماذا لا يحتفل هؤلاء بأعيادنا كما نحتفل بأعيادهم؟.

وموجة الاحتفال، والهدايا الصغيرة والكبيرة نعرفها فى هذه المناسبة، حتى أصبحت عادة من عاداتنا، وانعطفنا بذلك إلى المجتمع الغربى، وقلدناه فى مظهر خاص به، وعنينا به أكثر من عنايتنا بمناسباتنا الدينية والقومية!!

وهذا ما يفعله التقليد والتنازل عن ثقافتنا وشخصيتنا الإسلامية، حتى فى مثل هذه الأمور.

وسأجد من يقول: وما لهذا وديننا وشخصيتنا وهو خير يصيب بعض الناس؟

وأقول له: أولا: مثل هذا القول يدل على عدم شعور بالشخصية الإسلامية، وعدم اعتداد بالثقافة الأصيلة كما يدل على التسيب النفسى وفك صواميل الشخصية الإسلامية والقومية، كما يدل على عدم المعرفة بآثار مثل هذا.. وأقول له ثانيًا: ولماذا لا يفعل المسلمون هذا فى مناسباتهم الدينية أو القومية.؟ ولماذا لا نجد الآخرين يحتفلون بمناسباتنا؟

أليس من الأولى والأنسب والأكثر احترامًا وتقديرًا للمسلمين أن يتخذوا من عيد الفطر مثلاً، أو من رأس السنة الهجرية التى تتصل بهجرة رسولنا وارتفاع شأن ديننا مناسبة لمثل احتفالهم هذا؟.

ويقول لى: تقليدًا للغرب ومسايرة له.

وأقول: كفى هذا.. كفى دليلا على أن هؤلاء منفصلون نفسيًّا عن دينهم وشخصيتهم وثقافتهم الأصيلة. وماذا يكون الغزو الثقافى إلا مثل هذا حتى وإن صلوا وصاموا وزكوا. فهم ناقصون من هذه الناحية. وثقافتهم مهزوزة، وشخصيتهم ضعيفة فالدين أو الشخصية والثقافة، كل لا يتجزء فى نفس الإنسان، والإنسان وإن ظل أمامنا إنسانًا ولو قطعت منه يد، أو رجل، أو أذن، أو فقئت له عين، لكنه لا يكون إنسانًا سليمًا متكاملا.. والإنسان قد يؤدى ما عليه فى بعض الجوانب، ولكنه يكذب أو يخون مثلا، أو ينافق أو يـرتشى، أو يسىء إلى أهله.. فهل تراه أمامك إنسانًا سويًّا، يستحق احترامك كإنسان سوى؟ والإنسان أمامك قد تراه متكامل الصفات، ولكنه فى حقيقته جاسوس عليك، أو على البلد، فهل تراه بعد ظهور: تعاطفه مع غيرنا علينا، يستحق نظرة احترام؟ إن القانون يعاقبه بالإعدام، وإن لم يكن الإعدام الفعلى قانونًا، فالإعدام الاجتماعى.

إن ديننا وكل أمر يتصل به لا يعرف (الفصال) وثقافتنا كذلك، فإما مخلص متعاطف مع دينه ومع ثقافته، تعاطفًا يجرى فى عروقه كالدم بالكرات البيضاء والحمراء، وفى شرايين متفتحة، لا ضيق ولا رواسب فيها ولا انسداد ولا جلطة – ولا اضطراب فى ضربات القلب، إلخ فيكون إنسانًا قويًّا.

وإما إنسان فيه عيب، وفيه مرض، ناقص الكفاءة، معتل الصحة. فتنظر إليه على هذا الأساس.. والذى يفرط فى أمر يتصل بدينه أو بثقافته إنسان مريض بنفسه معتل القلب. هش البنيان، سقيم الوجدان.

ولهذا حرص الإسلام على إيجاد الإنسان القوى النفس الحى الوجدان، المرهف الإحساس نحو دينه ولغته ووطنه ومقومات ثقافته.. المكتمل فى اتجاهاته حتى إن زل أسرع فاعتدل، وإن وقع أسرع ووقف وإن كبا قام واستقام ولا يظل مستريحًا للأرض والتراب، ومن هنا كانت التوبة «وخير الخطائين التوابون».

ونحن إذا قبلنا أسلوب «وإيه يعنى هوًا دى كل الإسلام»؟ فى هذه أو تلك، فتحنا الباب لنقض الجدار «طوبة طوبة» والتنازل عن شخصيتنا شيئًا فشيئًا،

وفقدنا تماسكنا وحصانتنا. ولو أخذنا هذا أسلوبًا فى حياتنا، ما كانت لنا حياة ولا طعم ومذاق، وما كان لنا من وجه نعرف به، وما كان لنا من موقف نتخذه، ولا من عمل نحسنه ونتمه بل كنا، أمة تحبذ اتخاذ أقنعة متعددة لوجهها كأنها فى حفلة تنكرية، ومن فرّط وتساهل فى شىء، سهل عليه أن يفرط فى كل شىء ويظل طول حياته معتل القلب سقيم الوجدان.

فلا تقل «وإيه يعنى؟» فإن أول الانحدار خطوة، والقليل من هذا لا يؤدى إلى الكثير، ثم إلى الاشتهار والشيوع. ومعظم النار من مستصغر الشرر.. والذى يختل توازنه وتماسكه يهوى ويسقط، وقليل الخمر لا يسكر، ولا يغيب العقل، ومع ذلك حرم الإسلام قليله وكثيره، لأن القليل يفتح الباب للكثير.

فلا تهزأ بالصغير ولا بالقليل، ولا تترك الثقب الصغير فى السد الكبير، حتى لا يصبح فتحة كبيرة فيه وينهار. ولا تستهن بالشرارة الصغيرة، فإنك إن استهنت بها سرت وعلت وعظمت واستحال عليك محاصرتها، ولا تترك شرخًا أو لا تفعل شرخًا صغيرًا فى نفسك، وإلا اتسع.

لاتقل: وإيه يعنى؟ بل اعتن بالشىء الصغير وبالشر القليل، تحم نفسك وتحم من حولك من الأذى الصغير والكبير، والاستهانة بشكة الدبوس، ربما أدت إلى «داء الحمرة» فيميت، أو يؤدى إلى قطع بعض الأعضاء.

والرسول يوجهك إلى أن تختار صاحبك من الفضلاء، وتتجنب قرناء السوء، حتى لا تصيبك عدواهم، فالجليس الصالح خير من جليس السوء، والجليس الصالح كصاحب المسك إما أن ينفحك نفحة، أو على الأقل تشم ريحًا طيبة، والجليس السوء مثل كير الحداد الذى ينفخ به النار ويشعلها، إما أن يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحًا خبيثة. ولقد قيل فى الأمثال: قل لى: من تصاحب أقل لك من أنت، إن القرين إلى المقارن ينسب، فلا تقل لى: وإيه يعنى؟ فإن المصاحبة تعدى فى الخير وفى الشر.

واحذر مصاحبة اللئيم فإنه يعدى كما يعدى السليم الأجرب.

والرسول صلى الله عليه وسلم حين أطلق قولته: (من تشبه بقوم فهو منهم)

أراد التشبه فى شىء هو من خصائص القوم، ومن لوازم حياتهم وثقافتهم الخاصة بهم، وبها يعرفون ويتميزون عن غيرهم.

(أراد ألا تحشر نفسك طفيليًّا غريبًا عليهم ثقيلًا).

وأراد ألا تكون ممتهنًا تافهًا، فليس المسلم بممتهن ولا تافه، وإنما هو إنسان عزيز على الله وعلى نفسه ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾، والذى يحترم دينه وثقافته، يحترمه الغير ويهابونه..

وحتى إذا فعلت الخير فلا تفعله تشبهًا بهم، بل افعله لأن هذا من دينك ومن مقتضى ثقافتك وذاتك.

فلا تقل مثلًا: كلمتى واحدة، مثل الخواجات، ولكن قل: إننى صادق وكلمتى واحدة، لأننى مسلم، ولو تحريت الصدق تشبهًا بالخواجات، ما كان لك من فضل ولا وزن عند الله ربما تنتفع بهذا فى ثقة الناس بك، ورواج بضاعتك، ولكن مالك عند الله من نصيب ولا خلاق، وأنت إنسان تابع لا وزن لك.

حتى فى بعض المظاهر:

والرسول صلى الله عليه وسلم فى حرصه على استقلال شخصية المسلم أو ثقافته، كان يأمر أصحابه أن يظهروا بالمظهر المستقل عن غيرهم حتى فى الأمور الطبيعية كالشعر حتى يكون لهم فى بدء تكوينهم خاصة استقلال وشخصية، فهو يقول للمسلمين: غيروا الشيب ولا تشبهوا بأهل الكتاب (أو لا تشبهوا باليهود)[١].

وتغيير الشيب معروف وهو خضب الشعر الأبيض بمثل الحناء، كما ورد حتى لا يظهر المسلمون فى مظهر اليهود فى لون شعرهم الأبيض.

ويقول للمسلمين:

خالفوا المشركين احفوا الشوارب واعفوا اللحى[٢] أى اتركوها لا تحلقوها

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

كاليهود، أما الشوارب فإنها تقص.

وروى مسلم جزوا الشوارب وارخوا اللحى وخالفوا المجوس.

وجاءت رواية أخرى «احفوا الشوارب واعفوا اللحى وخالفوا اليهود».

والدلالة العامة من هذه الروايات: أن مقصود الرسول أن يخالف المسلمون فى هذا المظهر الطبيعى غيرهم، من المشركين والمجوس واليهود، حتى يكون لهم استقلال مظهرى عن مخالفيهم عن الدين، ولا يذوبوا فى غيرهم.

ومثل ذلك ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون فى نعالهم ولا خفافهم[١] أى صلوا فى نعالكم وخالفوهم.

وكان خلع النعال عند اليهود حين الصلاة، عادة لهم يقولون إنهم أخذوها من أمر الله لموسى بخلع نعليه مما حكاه القرآن ﴿فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدس طوى﴾[٢]، ومع ذلك أمر الرسول بمخالفتهم فى هذا المظهر؛ تحرزًا من التشبه بهم فى نطاق المدينة الضيق، حتى يربى فالمسلمين روح التحرج من الأخذ عنهم وتقليدهم.

وقد كانوا يفخرون على العرب بأنهم أهل علم، وأهل كتاب ويستكبرون[٣] فعمل الرسول على كسر هذا التكبر، وهدم هذه الثقة على الأقل فى نفوس المسلمين حتى لا يقلدوهم فى شىء - ويعكفوا على ما يوجههم إليه دينهم، ويستقلوا تمامًا عن الآخرين.

وكما فى قول رسول الله للمسلمين: (نظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود أو وخالفوا اليهود).

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) سورة طه ١٢.

(٣) والعرب أهل بادية لم يتعلموا كاليهود، فكانوا - عادة - مرجعًا للعرب فيما يشكل عليهم ويريدون معرفته، وكان اليهود برغم علمهم الضحل يحدثونهم بما عندهم من معلومات صحيحة فى ذاتها أو غير صحيحة، والعرب يأخذون هذا بثقة، وجاء الرسول للمدينة وهذه الحالة قائمة، فأراد أن يقضى عليها، حتى لا يخلط المسلمون ثمينهم بغث اليهود (راجع فى هذا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته - الكلام عن التفسير وعلومه.

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم حريصًا على تربية المسلمين تربية استقلالية فى أعيادهم، وفى مظاهرهم، وفى أفعالهم، حتى تكون لهم شخصيتهم الكاملة، ومصدر توجيههم الخاص بهم.

حتى شعرت اليهود بهذا، وقالت «ما بال محمد يردد ألا يدع شأنا من شئوننا إلا خالفنا فيه وكان هذا بعد فترة التهاون معهم كما أشرنا من قبل.

وفعلًا كانت المخالفة مقصودة من الرسول صلى الله عليه وسلم، للهدف الذى أشرنا إليه من قبل؛ وإلا فلأى هدف آخر يأمر الرسول بتغيير لون الشعر من أبيض طبيعى، إلى مخضوب ملون؟ ولأى هدف آخر يأمرهم الرسول ﷺ بحف الشارب وإعفاء اللحى؟

أو يأمرهم بالصلاة فى النعال والخفاف لأن اليهود يخلعون نعالهم؟

مع أن الصلاة فى النعال، ولا سيما فى المساجد، مدعاة إلى عدم النظافة، وقد نهى عن البصق فى المسجد، والبصاق طاهر، فكيف ولماذا يأمرنا الرسول بالنعال، وهى مظنة حمل نجاسة أو مادة طاهرة تلوث المسجد؟

بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بألا يحلقوا قفاهم، حتى لا يتشبهوا بالمجوس فى حلق القفا، وقد روى فى ذلك حديث مرسل: «إن حلق القفا من فعل المجوس». وكره ابن حنبل هذا الحلق؛ وإن قال لا أعلم فيه حديثًا وكثير من المحدثين والأئمة[1]: كانوا يتحاشون حلق قفاهم كما نفعل نحن الآن، حتى لا يتشبهوا بالمجوس فى عادتهم هذه.. مع أن حلق القفا من النظافة، وهو أمر يدخل فى باب العادات، وهو تابع للمزاج الشخصى.

(١) عند وجودى فى الهند للتدريس فى جامعة «دار العلوم ديوبند» سنة ١٩٥٦، لاحظت أن العلماء والطلاب هناك يكرهون حلق القفا. وقالوا: إن فى هذا تشبهًا بالإنجليز كما كانوا يكرهون القميص ذا الياقة، والحذاء بالرباط، من باب كراهيتهم التشبه بالإنجليز وبالهندوس، ويحبون أن يتميزوا عن غيرهم حتى كانوا يكرهون لبس السارى لأنه فى رأيهم للهندوسيات مع أن بعض المسلمين فى بعض البلاد لم يتحرجوا من لبس نسائهم له، كما رأيت وكنت أسمعهم يكرهون لبس طاقية نهرو، لأنها خاصة بالهندوس، وكنت أفهم أن من وراء هذا كله حبهم للتميز عن غيرهم ومخالفتهم تطبيقًا لما فعله الرسول ودعا إليه المسلمين فى المدينة وكنت أتعاطف مع هذه النزعة الاستقلالية لأن الحال فى مجتمعهم كان كالحال فى المدينة والدواعى موجودة.

فالمقصود إذن – من هذا ومن أمثاله هو مخالفة المسلمين للموجودين حولهم فى بعض المظاهر مشركين كانوا أم يهودًا، أم مجوسًا.. كما صرح الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه تلك وجعل المخالفة علة لما يأمر به «خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون فى نعالهم». (خالفوا المشركين، وذلك لبناء الشخصية الإسلامية الاستقلالية، حتى فى مظهرها).

وما دامت المخالفة غاية مقصودة فى توجيهات الرسول، فإن هذا يؤدى إلى أن نفهم أنه لو كانت اليهود تخضب، فإن المسلمين كانوا لا يخضبون، ولو كانت اليهود تصلى فى النعال فالمسلمون كانوا لا يصلون، وإذا كانوا يطلقون لحاهم فالمسلمون كانوا يحلقونها.. وهكذا.. لأن القصد هو المخالفة، حتى يظهر المسلمون بمظهر مستقل مخالف لمن حولهم ويميزهم عنهم.. إذ ليس فى هذه المظاهر اتصال أصلاً بناحية العبادة كالصلاة والصوم والصدقة.. الخ..

استطراد:

وهذا يجرنا إلى وقفة حول ما يقوله بعض العلماء عن فقه هذه الأحاديث وقولهم إن مثل هذا مؤقت بعلته ووقته. فلقد كان الرسول والمسلمون قلة فى كثرة «غالبة» تعيش معهم وتحيط بها فكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يتميز المسلمون عن غيرهم ظاهريًا كما يتميزون عقديًا وباطنيًا، فكانت هذه التوجيهات التى منها ما له صلة بشعائر الدين كالأعياد، ومنها ما لاصلة له بالدين كخضب الشعر والحلق إلخ.. مما هو من محض العادات والمظاهر.

أما ما يتصل من هذه المظاهر بشىء من الدين فهذا يظل كما هو ولا كلام لأحد فيه كالعيدين فلا يجرؤ إنسان على البحث فى تغيير وضعهما لاتصالهما بعبادتين، وأما ما لاصلة ولا ارتباط له بأمر دينى، ولكن بمجرد مظهر لهم تخالفه لتمييز المسلم من غير المسلم.

فهذا هو الذى يمكن أن يأتى فيه هذا الكلام ويمكن أن يقال عنه: إنه أمر مؤقت بالزمن الذى حصل فيه، وبالظروف والعادات التى كانت حاصلة وقتذاك بقصد المخالفة.

فإذا كان الرسول وقتها قد قصد أن يخالف المسلمون بعض ما عليه اليهود، وغيرهم ليتميزوا عنهم، فإن ذلك له وقته وظروفه، بمعنى أن الرسول أراد مخالفة المسلمين الموجودين حولهم فيما هم عليه من بعض التصرفات لا كلها، وامتثل المسلمون وتحقق الغرض، ولكن ماذا لو كان المسلمون بعد ذلك فى مجتمع لا يفعل اليهود ولا المشركون فيه ما كان يفعله أسلافهم فصبغوا شعرهم أو أطالوا لحاهم مثلاً.؟

فما الذى تخالفهم فيه؟ هل نمتنع عن الخصاب؟ وهل نحلق اللحى؟ أو نستمر فلا تكون هناك – مخالفة؟ وما الحال فى مجتمع مسلم وغيرهم قلة فيه ولا حاجة فيه – كما كان الحال فى المدينة – لأن يتميزوا عن غيرهم ويخالفوهم».

لقد أراد الرسول المخالفة، لتتميز شخصية القلة المؤمنة عن الكثرة غير المسلمة وليعرف المشاهد لهم أن هذا مسلم أو هؤلاء مسلمون، وهذه الحاجة غير قائمة فى المجتمع المسلم الذى فيه أغلبية غالبة من المسلمين، بل لا حاجة لمثل هذا التميز الآن فى هذه المظاهر وإن كان من الممكن أن تكون فى غيرها الآن.. إن الحالة تنعكس فى مثل هذا فالكثرة لا داعى لأن تتخذ لها شعارًا أو مظهرًا يدل على أن هذا من الأكثرية، بل العكس هو الصحيح أعنى أن القلة هى التى قد تحتاج إلى شعار، لو أرادت واتجهت..

فما الداعى للمسلم إلى أن يعفى لحيته؟ وماذا يقصد الآن ومن يخالف؟ وإذا كانت الحال فى تربية اللحى أو حلقها قد انفرطت الآن وأصبح الأمر فيها لدى الناس جميعًا للاختيار والمزاج الشخصى فتجد فى غير المسلمين من يحلق، كما تجد فيهم من يعفى لحيته ولا دلالة لهذا أو ذاك على شىء معين.. وكان غير المسلمين لا يحفون الشارب أمام الرسول بل يطيلونه ليقف عليه الصقر كما يقال، فأمر الرسول بقصه وتقصيره ليخالفوهم، ولكن الأمر الآن خاضع لاختيار الشخص يزيله أو يقصه أو يطيله فمن الذين نخالفهم الآن؟ ومن الذين نتميز عنهم لنُعرف؟ والأمر مرتبط بعلته وسببه: (خالفوهم)؟.

لقد كانت هذه التوجيهات لدواع محلية، وظروف وقتية، لأن هذه الأشياء مجرد مظاهر وعادات لا صلة لها بدين عندهم غالبًا ولذلك غيروها فما الداعى

لأن نفرض وجودها الآن وقد زالت وانمحت؟.

ولقد أمر الرسول بعدم حلق القفا، حتى لا يتشبه المسلم بالمجوس مثلاً وقتها.. يعنى لم يكن هذا أمرًا تعبديًّا، بل كان لمجرد المخالفة، وتوفير مظهر من مظاهر الاستقلال فى بعض التصرفات حينذاك حتى لايبدو المسلمون تبعًا لغيرهم فى بدء نشأتهم، والآن انتهت دواعى هذه المخالفة فى هذا، فما الداعى لأن نتمسك - كسنة - بعدم حلق القفا؟. ولسنا فى حاجة لأن نتميز شكليًّا بهذا عن غيرنا، كما كانت الحاجة فى المجتمع المسلم حين قيامه قبل ذلك.

والصلاة فى النعال:

ثم إننا نجد المسلمين قد تخلوا عن الصلاة بالنعال خارج المسجد وداخله اللهم أحيانًا فى السعودية، وفى نجد بالذات، مع أن للرسول توجيهًا خاصًّا بذلك كتوجيهه تمامًا فى حلق الشارب وإرخاء اللحى، وأصبح علماء المسلمين وعامتهم ينظرون إلى الصلاة بالنعال - ولا سيما فى المساجد نظرة استنكار، ويعتبرون دخول المساجد بالنعال التى يستعملونها إهانة للمسجد ولمشاعرهم، وربما انهالوا على من يفعل ذلك بالضرب والإيذاء.

ويستبدلون بنعالهم على باب المسجد أخفافًا طاهرة إذا أرادوا.. لكن عند صلاتهم يخلعونها وقيل أو قالوا: إن الحالة قد تغيرت عما كانت عليه زمن الرسول، وصارت الأرض والشوارع غير ما كانت عليه فى المدينة ولم يجد عندهم قول لمذهب أبى حنيفة فى أن النعال تطهر بالدلك، ولا بأس بالصلاة فيها، وتبدلت النظرة بذلك من أن الصلاة بالنعال سنة واستجابة لأمر رسول الله، إلى هذه النظرة الموجودة الآن من منعها لدى العلماء ولدى العامة إلا فى نجد بالسعودية مع ما فى ذلك من تلويث للمسجد أحيانًا[1].

---

(١) فى سنة ١٩٥٤ كنت فى الرياض مدرسًا ولاحظت أن دخول المسجد الكبير بالأحذية قد أحدث تلويثًا ظاهرًا بفرش المسجد وكانت أتربة الشوارع ترش بالزيت لتسكينها والأحذية تحمل آثار ذلك إلى المسجد، مما كان يلوثنا ويلوث ثيابنا بالزيت الأسود ونعود للمنزل ملوثين باللون الأسود مما جعلنى أفاتح فضيلة المفتى فى هذا الأمر ورجوته أن ينبه إلى خلع الأحذية فى خطبته منعًا لتلويث المسجد، ولكن استمر الأمر على ما هو عليه حينذاك، باسم أن الصلاة بالنعال سنة!!.

ودخول المساجد بالنعال أمر يريحنا كثيرًا، ويخلصنا من آثار الخلع، وحمل النعل، والبحث عن مكان له، للخوف عليه من الضياع أو التبديل إلخ، وهو فوق ذلك امتثال لأمر رسول الله ﷺ.

ومع ذلك لا نفعله؛ حفاظًا واحترامًا للمساجد، وتطهيرًا لها من آثار الشوارع، ولم أر أحدًا من أهل نجد يدخل أحد الحرمين، ولا المساجد فى مدن الحجاز بالنعال التى يمشون بها فى الشوارع. حفاظًا على السنة!.

والشاهد من إيراد هذا أن المسلمين تخطوا هذه العادة أو هذه السنة، وهذا الأمر، ولم يجعلوها سنة دينية عامة فى كل الأزمنة والأمكنة، بل جعلوها خاصة بوقتها وظروفها، إلا ما نراه أحيانًا فى نجد بالسعودية خاصة، وغاية ما يمكن أن يقال الآن أن الصلاة فى النعال جائزة.

وصبغ الشعر:

إن الأمر بتغيير الشيب الأبيض بالصبغ جاء فى أمر للرسول رواه الشيخان وغيرهما مثل أمره بإعفاء اللحى، والعلة فى الأمرين واحدة، وهى المخالفة - كما جاء فى نص الأحاديث، وكذلك فى الصلاة فى النعال، ونرى أورع العلماء العليمين بهذا، وهم شديدو الحرص على الاتباع، وقد أعفوا لحاهم، نرى هؤلاء لا يغيرون شيبهم، بل يبقونه على بياضه، حتى روى عن الإمام أحمد بن حنبل، أنه وجه نصيحته لأحد أصحابه الورعين وقال له:[1] «اختضب ولو مرة واحدة».

وهذا يدل على أن الموجة العامة، حتى فى الورعين من العلماء وغيرهم، كانت عدم الاختضاب، كما نرى الآن، ولا ندرى السبب فى أن اللحية أخذت من اهتمام المسلمين أكثر مما أخذه لبس النعال والخضاب، وعدم حلق القفا، مع أنها جميعها جاء فيها إرشاد وكلام من الرسول يكاد يكون واحدًا فى اللفظ، وفى السبب، وكلها عادات لهم، فكثر الجدال حول اللحية، وتركوا أمر الصلاة بالنعال، وصبغ الشعر، وعدم الحلق، والأمر فيها واحد؟.

---

(١) ص ٥٨ اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية..

أى أنها عادات لا صلة لها بدين، وأمر الرسول فيها واحد. فلماذا يشدد بعض الناس فيها حتى جعلوها كل شيء، وحتى تركوا الصلاة خلف حليق اللحية، ولم يتذكروا أمر الصلاة بالنعال، وأمر الخضاب، وعدم الحلق للقفا، فلم يصلّوا فى نعالهم، وحلقوا كما كان يحلق المجوس قفاهم، وكما يحلق المسلمون وغير المسلمين الآن، ولم يخضب شايب منهم، فلماذا كل هذا الاهتمام باللحية وحدها؟.

إن النظرة الفاقهة فى هذه الموضوعات تنتهى إلى أن سبب الأمر بها قد زال، وما دام الرسول قد أمر بها لعلة وهدف وقتى قد انتهى، ولم يعد له الآن مبرر، بعد أن تغير الحال، وصار وضع المسلمين غير وضعهم بالمدينة زمن الرسول، وما دام السبب قد زال وهذه أمور شكلية مظهرية، وعادات، فمن الطبيعى أن تنتهى بزمانها، وزوال سببها، اللهم إلا إذا وجد مجتمع يكون المسلمون فيه قلة كالهند، واحتياج الأمر إلى أن يتميزوا شكلا عن غيرهم، وأن يبتعدوا عن التشبه بالكفار حولهم، فإن هذا يعتبر أمرًا واردًا فى هذه الحالة[1].

والذين يلقون بوجهة النظر هذه ويقولون: إن أمر اللحية والصلاة فى النعال – والخضاب والأمر فيها واحد قد صار الآن غير ذى موضوع، وإنما هو أمر تاريخى وعمل رآه الرسول فى زمنه، ومجتمعه، وظروفه، لأسباب محلية، ومضى الزمن، وتغير المجتمع، واختلفت الظروف وزالت الأسباب.

وهذا كلام وارد ومنطق له وجاهته.

ولعل هذه النظرة تقابل نظرة المتشددين فى ضرورة تربية اللحية، واعتبارها أمرًا حيويًا وهامًا من أمور الدين، ويقيسون دين الإنسان بها.

ولو أنهم جميعًا آثروا الاعتدال، ووضعوا كل أمر فى موضعه المناسب له، وسط

(١) أحسست وأنا أقيم بالهند من يناير سنة ١٩٥٦ – مايو سنة ١٩٥٨ تشدد العلماء فى أمر اللحية حتى رأيت شيخ الإسلام والعلماء هناك (مولانا حسن أحمد مدنى) يرفض مصافحة رجل من محبيه حليق اللحية، والتمست لهم العذر، فهم قلة وسط طوفان بشرى غير مسلم. فالسيخ يحرمون قص شعرة واحدة منذ الولادة وطول حياتهم ومظهرهم معروف. والهندوس لا يلتزمون بمظهر خاص بالشعر، يحلقون كما يحبون أو يتركون.. وبعض كبار العلماء هناك يبالغون فى الإتباع ويتركون شعر رأسهم حتى يطول جدًا وينزل من الخلف على ظهرهم.. ويدهنون بالزيت، اقتداءً فى رأيهم بالرسول، فيحدث هذا فى ثيابهم ما يحدثه، ومع ذلك فلايفعلون مثل هذا بالنسبة للخضاب ولا يخضبون كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

غيره من الأمور الدينية، لما زاد أمر اللحية عن أمر الصلاة فى النعال، وخضب الشعر وحلق القفا (التدريجة)..

فهذه كلها أوامر إرشادية خاصة بعادات ومظاهر، وكانت لهدف لم يعد موجودًا الآن وهى من العادات التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسير عليها ويرشد أصحابه حوله إليها كما كانت العرب تفعله قبل الإسلام فمن أراد السير على هذه الطريقة والعادة فيها ونعمت، وأخذ ثواب نية الاتباع والاقتداء بالرسول، ومن تركها فلا عقاب ولا شىء عليه، كتركه الصلاة بالنعال ولا نقص فى دينه[١] يقول ابن تيمية (وما لم يكن من خصائص دينهم ولا شعارا مثل نزع النعلين فإنه جائز كما أن لبسهما جائز»[٢].

وقد كان عبد الله بن عمر رضى الله عنه يحرص أكثر من غيره على الاتباع، ويفعل فى هذا ما لا يفعله أحد، حتى ولا كبار الصحابة، مثل أبيه ومثل أبى بكر وغيرهما، حتى كان يحاول معرفة المكان الذى وضع فيه الرسول قدمه، أو نام فيه، ليضع هو قدمه وينام فيه، حبًا شديدًا لرسول الله، رأى أن ينفذه حتى فى هذا التحرى، وتبركًا بمكانه، ولم يتابعه الصحابة كما لم يعترضوا عليه.

فالحياة لا تحتمل ولا تساعد على طريقته رضى الله عنه، ولذا اشتهر وحده بهذا، والأعمال فى الدين درجات، «والدين متين» كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «فأوغل فيه برفق، والدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»، وهو بحر لا ساحل له، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام «فسددوا وقاربوا».

ومن الفقه فى دين الله معرفة أن لكل شىء فيه منزلته وقدره ووضعه، والفقيه

---

(١) وفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر سابقًا له رأى جاء فى كتابه «الفتاوى» يقوم على أن اللحية من الأمور والخصال الفطرية، مثل تقليم الأظافر، وإزالة شعر الإبط والعانة. ومثل السواك. والختان، مما تكلم فيه الفقهاء، وأعطوه حكم السنية والاستحباب، ثم قال: «والحق أن أمر اللباس والهيآت الشخصية، ومنها حلق اللحية من العادات التى ينبغى أن ينزل المرء فيها على استحسان البيئة، فمن درجت بيئته على استحسان شىء منها كان عليه أن يساير البيئة، وكان خروجه على ما ألفه الناس فيها شذوذًا على البيئة» ص ٢١٠ الطبعة الأولى ١٩٥٩.

(٢) ص ١٨١ «اقتضاء الصراط المستقيم» سبق ذكره. ومثلى نزع النعلين، حلق اللحية، وترك الخضاب.

الحكيم المتبصر، هو الذى يفهم كل أمر من أمور الدين على حقيقته ووضعه، ونسبته من غيره، ويضعه فى موضعه، فلا يفرط فى الفرض، حتى كأنه سنة، ولا يتشدد فى السنة، التى يثاب على فعلها، ولا يعاقب على تركها، وينزلها منزلة الواجب.

ويزن الناس تدينهم على هذا الأساس، فإذا أخذ الفقهاء من أقوال رسول الله فى أمر إعفاء اللحى أنها سنة، يثاب فاعلها، ولا يعاقب على تركها، فلا داعى لأن يجعلها بعض الناس هى المحك فى الدين، ويرفضوا الناس ويكرهوهم ويرفضوا الصلاة خلفهم، وينظروا إليهم نظرة انتقاص، لأنهم حليقو اللحية.. ويحدثوا مشاكل وصدامات يرتكبون فيها صريح أو كبار المحرمات، من أجل الحفاظ على أمر لا يعدو فى أحسن الحالات أن يكون سنة، وتركه هو مثل ما يترك هؤلاء وغيرهم كثيرًا من السنن...

إن هذا من عدم الفقه فى الدين، ومن عدم الحكمة والبصيرة فى تناول الأمور..

ونسأل الله أن يرزقنا الفهم لدينه، والبصيرة فيه وفى العمل به...

اعتراض وجوابه:

ولكن يبقى اعتراض على أصحاب هذه النظرة، الذين يقولون إن هذه الأمور لم يعد هناك ما يبرر التمسك بها فى بيئات غير بيئة الرسول الأولى، وأنها كانت وقتية، وهذه الأمور لم تعد خاصة بالمشركين ولا اليهود ولا المجوس.

والاعتراض يقول: إذا فعل غيرنا ما نفعله، كأن ربوا لحاهم مثلا، فهل هذا يبرر أن نترك ما نحن عليه؟

وقد أجابوا بأن قولنا هذا مبنى على أن العلة أو الغاية فى وقتها، كانت مخالفة هؤلاء فى هذه العادات كما قرر ابن تيمية[1] ليظهر المسلمون بمظهر استقلالى فى بدء تكوين مجتمعهم، أما وقد زالت هذه الظروف، وتغيرت الأوضاع، فإن هذه

---

(١) راجع صفحة ٥٨ وما بعدها من (اقتضاء الصراط المستقيم)..

الإرشادات قد أصبحت غير ذات موضوع ولا هدف لها، كما كان الأمر أولاً أيام الرسول... فلا نقول بتركها لمجرد أن غيرنا يفعلها، وإلا فنحن فى الواقع نسر، إذا اقتنع غيرنا بمبدأ لنا أو بتصرف حميد، وفعل مثلنا فى هذا أو ذاك، فالمسألة ليست مجرد أن غيرنا شاركنا فى هذا، بل لأن الإرشاد كان لسبب أو لعلة، وقد زال السبب أو العلة، فينتهى تبعًا لذلك ما قام عليه، ونتركه لهذا لا لأن غيرنا فعله. فإن فِعْلَ غيرنا له أمر هامشى. لكن تبقى هذه، العلة قائمة كقاعدة لنا فى غير ذلك، وفى كل زمان، لنواجه بها الظروف المماثلة، أعنى أنها تبقى قائمة، وعلينا مراعاتها فى كل أمر يكون مشابهتنا فيه لغيرنا، ذوبانًا لنا فى هذا الغير، وعنوانًا على تبعيتنا، وضعف شخصيتنا، كما يجرى الآن من تقليد الغرب فى أمور من خصائصه، وكما نفعل فى أعياد الميلاد مثلا، تشبهًا بهم حتى كأننا غربيون.

من تشبه بقوم:

على أنه ينبغى أن يكون معلومًا - وأكرر هذا - أن الأفعال والعادات التى لا يصح التشبه بالغير فيها، هى التى تكون متصلة بأمر دينى عندهم، أو التى تكون عادة من أخص خصائصهم لا يفعلها غيرهم، بحيث لو فعلها الواحد من المسلمين ورآه غيره، قطع أو ظن ظنًا غالبًا، بأنه غير مسلم. وفى حدود هذا نفهم الحديث الآن «من تشبه بقوم فهو منهم».

أما ما عدا ذلك من العادات العامة، التى لا ترتبط بدين، والتى لا تكون خاصة وملتصقة بهم، ومميزة لهم عن غيرهم، فالأمر متروك فيها للاستحسان الشخصى - ولقيمة العادة وأثرها فى المجتمع، ولما تتركه فى النفوس من انطباع حسن أو سيئ.

ولقد ذكر ابن تيمية[1] بعض الأفعال التى أنكر على المسلمين فعلها تشبهًا بنصارى الشام فى أيام احتفال المسلمين بختام صوم النصارى بالأفراح والنفقات والهدايا، وكسوة الأولاد، ومشاركتهم فيما يحصل فى يوم الخميس الكبير، فى آخر صومهم، والجمعة الكبيرة، والسبت الذى يليها ويسمونه «سبت النور»، وكذلك

(١) من ص ٢٠٩ من (اقتضاء الصراط المستقيم) سبق ذكره.

صنع الطعام الذى يصنعونه خاصًا بأعيادهم، وغير ذلك من المظاهر الخاصة بأعيادهم، والتى لها صلة بدينهم وشعائرهم، ويفعلها المسلمون تشبهًا بهم. وهى مثل ما يفعله المسلمون الآن من احتفالات خاصة بأعياد الميلاد، ورأس السنة الميلادية، مما يخدش انتسابهم وإخلاصهم لدينهم، ويدل على ضعف شخصيتهم، وعلى قوة تأثير ثقافة الغير فى ثقافتهم.

إن هذا مما يكرهه الإسلام للمسلم - علمًا بأنه لا يكره مجاملتهم، وزيارتهم فى أعيادهم، بما لا يتنافى مع خصائصنا، أما أخذ العلم والتكنولوجيا، وتعلم ذلك وغيره من علوم الحياة وصناعاتها عنهم، فهذا أمر آخر، يطلبه الإسلام من المسلمين، بل يبكتهم لأنهم تركوا مجال السبق فيه لغيرهم، وكانوا هم الأولى به..

ولكن ماذا كان موقف الإسلام من علم اليهود؟

أهل الكتاب الذين نتحدث عنهم هنا غالبًا هم يهود المدينة، الذين سكنوها وأقاموا بها قبل هجرة الرسول إليها، وهم الذين تحدث عنهم ابن خلدون فقال[1]:

«وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ أهل بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك - أى العلم - إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهودية».

وهؤلاء كانت لهم بالطبع مراجعهم من كتبهم الدينية، التى يرجعون إليها، ويسلمون بها تسليم شبه العوام بما أمامهم من كتب يعتقدون فيها. ويستمدون منها علمهم مما يتصل بالدين والتاريخ خاصة»

ومع أن «علماء الكتاب المقدس كلهم مجمعون على أن العهد القديم -وهو التوراة- جرى وضعه خلال، وبعد المنفى إلى بابل[2] حوالى ٤٠٠ سنة قبل

---

(١) فى مقدمته: علوم القران من التفسير والقراءات.

(٢) التوراة تاريخها وغاياتها ص ٢٠ ترجمة وتعليق سهيل ديب الطبعة الثانية دار النفائس بيروت ١٩٧٧ م.

الميلاد، وأن تاريخ اليهود القديم المذكور فى الأسفار الستة من التوراة، لا يمكن التحقق من صحته من أى مصدر آخر سوى التوراة، وأنه أسطورى، وقد أعيد وضعه من وجهة نظر فريسية[١] نسبة إلى الفريسيين أى المنشقين كما تقول الموسوعة اليهودية.

«وأن معظم علماء الديانات تقريبًا بمن فيهم اليهود، يجمعون على أن اليهودية بوضعها الحالى، هى غير الدين اليهودى الذى جاء به موسى، وأنه مما لا خلاف فيه أن التلمود[٢] - وهو الكتاب الذى يشرح العقيدة اليهودية - هو كتاب سرى وضعه حاخامات اليهود خلال فترة امتدت ما بين ٤٠٠-٦٠٠ سنة».

ومع ما يقوله الدكتور جوزيف باركلى: فى كتاب الأدب العبرى عنه: «وبعض أقوال التلمود مغال فيها، وبعضها كريه، وبعضها الآخر كفر، ولكنها تشكل فى صورتها المخلوطة أثرًا غير عادى للجهد الإنسانى، وللعقل الإنسانى وللحماقة الإنسانية[٣]».

مع هذا كله فهى كتب موثوق بها لدى أصحابها اليهود، تشكل ديانتهم وثقافتهم ونظرتهم لأنفسهم ولغيرهم.. لكنها عند غيرهم كما رأيت بل عند بعضهم أيضًا من الباحثين غير موثوق بها.

ولذلك لم يكن غريبًا ولا تجنيا أن يقول الله عنهم: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًا مما ذكروا به[٤]﴾ ويكرر هذا فى السورة نفسها بعد ذلك ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه[٥]﴾

---

(١) ص ١٩، ٢٠ من المصدر السابق.

(٢) التلمود معناه بالعبرية (التعليم) وهو مجموعة شروح ووصايا تعليمية، كانوا يتناقلونها شفويا وسريا، ثم دونوها لما طبع فى أوربا لأول مرة ١٥٢٢ وعرف المسيحيون ما فيه من عداء جاء لغير اليهود، فأنزلوا بهم العذاب والاضطهاد. راجع كتاب التلمود لظفر الإسلام خان، طبع دار النفائس بيروت ١٩٧٢، وكتاب التوراة المرجع السابق ص٦.

(٣) ص ٧ من المرجع السابق ويقول أحمد أمين فى ضحى الإسلام جـ١ ص ٣٣٠ الطبعة الثانية ١٩٣٤ بأنه قد نسج كثير من الأدب والقصص والتاريخ والتشريع والأساطير حول التلمود.

(٤) المائدة ١٣.

(٥) المائدة ٤١.

كيف يتفق هذا مع الاستشهاد بهم؟

ومن التاريخ وقرارات الباحثين من العلماء - يهودًا وغير يهود، ومما قطع به القرآن من أنهم يحرفون الكلم أى كلام التوراة.. تهتز ثقتنا وثقة كل منصف فى صدق كل ما جاء فى التوراة وفى التلمود من باب أولى.

لكن هذا لا يمنع أن يكون فيها صدق، ولاسيما فى المبادئ العامة الكبرى التى جاءت بها الأديان ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[١]، وجاءت آيات أخرى تخبر بإجماع المرسلين على الدعوة للتوحيد، وإلى أمهات الفضائل، وأصول العبادات من صلاة وزكاة وصيام، وإن اختلفت فى صور تنفيذها فيما بينها.

﴿يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أيامًا معدودات﴾[٢]

فمبدأ إرسال الرسل من البشر ودعوتهم الناس إلى التوحيد، وعبادة الله، ومكارم الأخلاق، وإنزال الكتب عليهم بهذا، هو مبدأ مقرر معروف لدى اتباع الرسل، ومنهم اليهود، وفى كتبهم، ولا يمكنهم إنكاره وإلا نقضوا دينهم.

وهذا فى رأيى هو القدر الذى يشترك فيه القرآن مع ما سبقه من كتب، ويصدق فيه كل كتاب لاحق ينزل، ما سبقه من الكتب ويؤيده فيه، كما قال الله سبحانه:

﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾[٣]

ثم يقول الله بعد ذلك بآية لرسوله ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما

---

(١) الأنبياء ٢٥.
(٢) البقرة ١٨٣، ١٨٤.
(٣) المائدة ٤٦.

بين يديه من الكتاب﴾[١] أى الكتب السابقة عليه، ونظرًا لأنه آخر الكتب المنزلة أضاف إلى ذلك قوله ﴿ومهيمنا عليه﴾[٢] بحيث يكون قوله هو القول الفصل والمرجع الأم، فلو حصل فى أى كتاب كلام يخالفه فى هذه الأمور الكلية فالقول قول القرآن ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾[٣].

أما الأمور الجزئية من التشريعات فى الحياة، فذلك أمر يتبع الظروف ويختلف فى الشرائع باختلافها، كالأدوية للمرضى، فإذا اتفقت الرسالات فى الأمور الكلية والمبادئ الأساسية، فإنها تختلف أو قد تختلف فى شرائعها وأحكامها التفصيلية الفرعية، كلها أو أغلبها ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[٤] ولذلك عقب الله حديثه عن الكليات، حديثًا عن التفصيلات والمناهج وقرر بأن لكل نبى شريعة ونظامًا ومنهاجًا خاصًا، ولا يلزم الاتفاق بينهم فيها، ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾[٥] ولكنه لم يشأ ذلك لأنه يخالف الحكمة فى التشريع والله حكيم خبير.

فكل رسول له منهاج خاص بأمته، لا يحتج بمنهج على منهج، ولا يغضب السابقين أن جاءت رسالة بعدهم، تختلف معهم فى التفصيلات والأحكام الفرعية، كلها أو أغلبها.. لأن حكمة الله تقتضى هذا التغيير، فلا يصر على مطالبة الرسول اللاحق بتطبيق وتنفيذ أحكام سابقة عليه، بل ينفذون الأحكام والقوانين الجديدة، ويؤمنون بالرسول الذى أتى بعد رسولهم ويتبعونه.

وإنما قلت: قد تتفق بعض الرسالات فى بعض الأحكام التفصيلية، لأن القرآن الكريم يقرر مثل هذا فى حكم الرجم للزانية المتزوجة والزانى المتزوج فى التوراة، وجاء الحكم كذلك فى الإسلام وكان الرسول يرجم.

يقول الله عن اليهود ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾[٦] وهو الرجم؟ ولماذا لم ينفذوا ما فى شريعتهم، وهم يعلنون تمسكهم بها؟ لماذا يحاولون التخلص منها؟ ويمكن مراجعة تفسير هذه الآية وسبب نزولها، وقد ورد

(١) المائدة ٤٨.
(٢) من الآية السابقة.
(٣) المائدة ٤٨.
(٤،٥) من آية ٤٨ سورة المائدة.
(٦) المائدة ٤٣.

ذلك فى حديث رواه البخارى فى الجزء السابع عشر ص ٣٠٠ من فتح البارى طبعة الحلبى.

ومؤدى هذا كله: أن الكتب السماوية والرسالات تلتقى فى الأصول والمبادئ الكلية دائمًا وقد تلتقى فى بعض الأحكام[١] الجزئية.. ولكن القدر الكلى هو المقصود بأن القرآن مصدق فيه لما سبقه من الكتب.. والإنجيل مصدق كذلك للتوراة وما قبلها، على حين تختلف هذه فى التفصيلات والمناهج فى أغلبها، وإذا جاء ما يصدق بعض التفاصيل فيها ونعمت.. فإذا أصر السابقون على اتباع الرسالة السابقة وأعرضوا عن الرسالة الخاتمة أو اللاحقة فهم أهل هوى وكافرون بها..

ولهذا قال الله لرسوله ولأمته ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾[٢] ويتكرر هذا التحذير فى عدة آيات...

وذلك لأن الأديان لا تبنى على الأهواء الخاصة، وإنما على العلم، وقد جاءه العلم ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[٣] ﴿فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم﴾[٤] وإذا أصدر قانون جديد يكون هو المرجع، وهو الذى يحتكم إليه، وإن ضم بعض ما يكون فى القديم. وهذا هو المعروف المعمول به عالميًا.

---

(١) كما سبق فى الرجم، وكذلك فى القصاص فى النفس وفيما هو دونها، فالإسلام يتفق مع اليهودية فيها. جاء فى سفر الخروج «إن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس ٢٤ وعينًا بعين وسنًا بسن ويدًا بيد، ورجلا برجل ٢٥ وكيًابكى، ورضًا برض» وفى سفر اللاويين الفصل ٢٤ «١٧» وإذا أمات أحد إنسانًا فإنه يقتل ١٨ ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسًا بنفس ١٩ وإذا أحدث إنسان فى قريبه عيبا فكما فعل يفعل به ٢٠ كسر بكسر وعين بعين وسن بسن عن تفسير المنار ص.٤٠٠ جـ ٦. وهذا هو ما أشار إليه القرآن ﴿وكتبنا عليهم فيها «أى على اليهود فى التوراة» أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾ الآية ٤٥ من سورة المائدة ولا نرجع لما عندهم بل لما عندنا فى شأن هذا القصاص، وقد قال المفسرون والأصوليون: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد لنا نص بتغييره، ولذلك اعتبروا حكاية القرآن لما عندهم والسكوت عليه، وعدم تغييره إذنا لنا باتباعه مع ما ورد فى القرآن عن القصاص ﴿يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى﴾ الآية ١٧٨ من سورة البقرة.

(٢) البقرة ١٤٥. (٣) الجاثية ١٨. (٤) الزخرف ٤٣.

والقرآن الكريم بهذا ينصف الحقيقة، فلا يحكم على كل ما جاء فى كتبهم بالتحريف، ولا على دياناتهم بالتخريف، بل يقرر أن بعض ما جاء فيها يلتقى مع ما جاء فى القرآن فى النواحى التى أشرنا إليها وهى المبادئ العامة للأديان بصفة خاصة.

وفى هذه جاء الاستشهاد والتصديق:

وفى هذه النقط التى يتم فيها الالتقاء جاء الاستشهاد بالسابقين من الرسل وأممهم عليها، ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾[1] ﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾[2] والرسول لا يشك ولا يكذب فى شىء من ذلك، والسؤال للرسل يعنى سؤال أممهم وكتبهم ليسمع.. المشركون المكذبون والشاكون والخطاب وإن كان موجهًا إليه، فالمراد غيره «واسمعى ياجارة»، أى اسأل أمم من أرسلنا على طريقة المجاز بالحذف، مثل ﴿واسْأل القرية﴾ كما فى الآية الأخرى ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب﴾.

فمبدأ التوحيد، ونزول الكتب من عند الله على رسله، مبدأ معترف به من كل أهل الأديان، وإلا ألغوا أنفسهم وأديانهم وكتبهم، لو أنكروا هذا..

فالمشركون الذين يعبدون آلهة أخرى، يجدون أن ما هم عليه من أفكار موضع استنكار من كل الرسل وأممهم لا محمد وحده وأمته.

«والذين يشكُّون من اليهود أو المسيحيين، ويجارون الوثنيين، ويستبعدون نزول كتاب على رسول الله يناقضون أنفسهم ووجودهم، إذ لا يستطيع واحد منهم أن ينكر مبدأ نزول الكتب على الرسل، وإلا أنكر وجود التوراة والإنجيل.. وهكذا لا يوجه الله رسوله إلى الاستشهاد بأهل الكتاب إلا فى موضوع من موضوعات الأصول، وفى مبدأ من المبادئ التى لا خلاف عليها بين

---

(١) الزخرف ٤٥.

(٢) يونس ٩٤، ٩٥.

الرسل ولايمكنهم اللجاج فيها ﴿قل ماكنت بدعًا من الرسل﴾[١].

ولم يستشهد الله بهم، أو لم يوجه الرسول وأمته إلى سؤالهم عن شيء خاص برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث التشريعات الخاصة به، ليشهدوا به، بل فى المبادئ والأصول التى ينكرها المشركون.. فهم يسألونهم مثلا:

هل صحيح أن الله يرسل رسلا؟ هل صحيح أن هؤلاء الرسل بشر مثلنا؟ هل صحيح أن الله واحد؟ هل صحيح أن الله أنزل كتبًا على الرسل السابقين كما أنزل القرآن[٢]؟ فمثل هذه الأسئلة لا يمكنهم الإجابة عليها بالنفى. وليس واردًا أن يكون السؤال مثلا: هل الصلاة فى خمسة أوقات؟ هل الواجب صيام شهر رمضان؟ وبطريقة كذا؟

لأن مثل هذا لم يكن عندهم، فلا يكون السؤال لهم فيه واردًا، لأنهم سيردون بالنفى أو أنهم لا علم لهم بهذا، ولا يفيد التوجيه إلى سؤالهم أية فائدة، بل ربما كان العكس ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[٣].

على أن السؤال حينما يكون فى المبادئ العامة لا يكون المراد اتباعهم فيها، بل إثبات المبدأ وبيان أنه محل اتفاق، ولا وجه للمشركين فى إنكارهم.

أما الاتباع فإنما يكون لمحمد ﷺ، والآخر تعديل صدر ممن يملك التعديل وهو الله سبحانه...

---

(١) الأحقاف ٩ وفى هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ الآية ١٦٣ النساء ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ الآية ١٣ من الشورى فهذه المبادئ المشتركة هى محل سؤالهم والاستشهاد بهم ليسمع الذين يقولون ﴿وأجَعَل الآلهة إلها واحدًا إن هذا الشيء لعجاب﴾ ويقولون ﴿ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾ ٥، ٧ من سورة ص. ويعرفوا أن مبدأ إرسال الرسل وإنزال الكتب معروف.

(٢) جاء فى فتح البارى شرح صحيح البخارى ص ١٠٠ طبعة الحلبى ١٩٥٩م «للتوفيق بين الآيات التى توجه الرسول إلى سؤال أهل الكتاب ونهى الرسول لأمته عن سؤالهم فى قوله «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء» «ويحتمل أن يكون الأمر يختص بما يتعلق بالتوحيد والرسالة المحمدية وما أشبه ذلك والنهى عما سوى ذلك، أى يسألونهم فيما يختص بالتوحيد والرسالة وما أشبه ذلك والنهى عما سوى ذلك من الأمور التفصيلية وبهذا يمكن الجمع بين الآية والحديث. وهو ما قلناه.

(٣) المائدة ٤٨.

لكن هذا له خلفية هى التى نقصد إليها، وهى أن الكتب السابقة إن وجدنا فيها ما يتفق وما جاء فى كتابنا، وما قاله رسولنا، فبها ونعمت، ولا نكذبها، ولا نرفض ما جاء فيها، بل نصدقها، على أن نعمل بما جاء عندنا، طاعة لله ورسوله. مع انشراح صدورنا بما وجدناه موافقًا لنا من الكتب السابقة.

وإن خالفت ما عندنا من قول الله ورسوله، رفضناها رفضًا باتًّا..

وهذا يعنى أننا نتصرف من منطلق استقلالنا التام فى مصدر ثقافتنا، وفى تربية وجداننا لا نغذيه من طعام غيرنا، بل من طعامنا الخاص بنا.. تغذية سليمة غير ملوثة.. بخرافات، وأباطيل وتصورات خاطئة، ولا ممتزجة بأفكار مسمومة تهدد هذا الوجدان وتفسد خلاياه. ولا نستعمل دواء أو غذاء انتهت مدة صلاحيته...

وليس مما يقبله عقل أى إنسان أن يكون عنده الغذاء السليم متوفرًا أمامه، فيهمله، ويلجأ إلى غذاء ملوث غير سليم فيتناوله، اللهم إلا إذا كان هو الآخر مجنونًا غير سليم العقل..

وحين لا يكون عندنا نص؟

لكن ماذا يكون موقفنا لو سمعنا أو وجدنا عند هؤلاء، كلامًا فى موضوع مالم يتعرض لـه القرآن ولا السنـة، وهو متصـل بأمـر مغيب عنا، لانملك الـدليل على صدقه أو كذبه.. وله اتصال بكلام أو بموضوع دينى، أو تصور فكرى، يمكن أن يؤثر فى حكمنا على أشياء وردت فى القرآن، كما قيل فى لون كلب أهل الكهف، وفى سبب الرعد والبرق والزلازل، وخشب سفينة نوح، وغير ذلك مما تحدث به أهل الكتاب، نقلا عما وجدوه فى كتبهم. وتجد كثيرًا منه عندنا مبثوثا فى كتب التفسير وغيرها مع الأسف، إذ عمل المفسرون على وضعه فى تفسيرهم للآية، وعمد الوعاظ على ترديده، وكذلك القاصون، ليزداد تأثيرهم على النـاس، ويكسبوا عندهم منزلة، أو منهم مالا. لولعهم بالغرائب، وبيان المجهول؟!..

وقد ذكر القرآن بعض أشياء كونية، مثل الرعد والبرق إلخ.. وبجوار ذلك ذكر بعض الأشياء الجانبية فى خلال قصة تساق للعبرة، مكتفيًا فيها بموضع العبرة، دون الاهتمام ببعض التفاصيل التى لا تهم فى إعطاء العبرة، مثل لون

كلب أهل الكهف، ومثل نوع خشب سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ومساحتها. فماذا يهم ذكر لون الكلب، أو نوع الخشب فى إعطاء العبرة؟

والإنسان بحكم غريزة حب الاستطلاع عنده، لا يقف عند استخراج العبرة، ولا يكتفى بهذا ولكنه يتطلع إلى معرفة أشياء أخرى جانبية، لا فائدة من معرفتها عليه، فيتساءل: ماذا كان لون الكلب؟ وخشب السفينة من أى نوع من الخشب؟ وهكذا يتطلع إلى معرفة السبب فى ظاهرة الرعد والبرق، والزلزال. وسير السحب، ونوع شجرة آدم... إلخ.. ويبحث عن مصدر يشبع به حبه للاستطلاع.

والقرآن الكريم والسنة النبوية لم يهتما بهذه الجوانب، بل يقصدان رأسًا للموضوع والعبرة منه، دون الانشغال بما لا فائدة فيه من الأشياء الجانبية، إذ ما الذى يفيد من ذكر لون الكلب؟ أو ذكر نوع الخشب؟ أو ذكر نوع الشجرة، هل هى التين، أو العنب، أو التفاح؟

والقرآن ليس كتاب طبيعة، ولا من مهمته، ولا من مهمة الرسول تفسير هذه الظواهر علميًّا، وهو يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويكتفى بلفت نظرهم إلى ظاهرة عظيمة أمامهم يمكنهم الوقوف منها على قدرة الله إجمالا.. كسير السحاب، واختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح واتجاهاتها، ونزول المطر، فيحيى الأرض بعد موتها..

ومجرد النظر إلى هذه الظواهر يعطى العبرة المرادة، وصحيح أن الدخول فى التفاصيل، والوقوف على الدقائق الخفية فى الكون، يعطى جرعة أكبر، من العبرة والعظة، ولكن ليس القرآن ولا السنة كتابى.. علوم وطبيعة، بل على الإنسان بعقله أن يبحث... وقد فتح له القرآن باب البحث، وحثه عليه ليزداد علمًا، ويزداد اعتبارًا ومعرفة بقدرة الله، عن طريق الملاحظة والبحث العلمى.. إذ لم يكن عند العربى حين نزل القرآن استعداد لاستيعاب هذه الدقائق..

ولذلك حين سأل بعضهم عن الأهلة، وسبب اختلاف حجم القمر كما يرونه، أجاب القرآن عن السؤال الجواب الذى يستطيعون هضمه، ولهم فيه فائدة

﴿يسألونك عن الأهلة، قل هى مواقيت للناس والحج﴾[١]..

وسمى هذا فى البلاغة بالأسلوب الحكيم فى مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وبالشىء الذى يمكنهم فهمه، وإلا فهل كان العرب الذين سألوا هذا السؤال عندهم استعداد، لأن يهضموا المعلومات التى ندرسها الآن لطلاب المدارس، عن دوران الأرض وموقع القمر من الشمس والأرض، وأن نوره مستفاد من ضوء الشمس.. إلخ؟..

ولذلك لم يذكر لهم هذا الجواب، بل ذكر لهم المناسب مما يستطيعون أن يفهموه ويهضموه، ويستمدوا منه عبرة.. وهو أنه «مواقيت للناس» ولذلك جاء فى الأثر «خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»

هذه الأمور التى قد يتطلع الإنسان بحكم تطفله، وسيره وراء حبه الاستطلاع أو بحكم الغريزة الطبيعية فيه إلى حب معرفتها، ولم يجد فى القرآن ولا فى السنة ما يشفى غلته ويشبع رغبته منها، ويرضى فضوله. ماذا لو وجد المسلم كلامًا يشبع هذه الرغبة عند أهل الكتاب اليهود؟ هل يأخذه أو يرفضه؟.

الإسلام والمعرفة:

هنا نحتكم إلى القاعدة القرآنية الإسلامية فى تغذية عقل المسلم وتربية وجدانه وقبول المعرفة ورفضها. فنجد أن القرآن يضع قاعدة لهذا، تقرر أن العلم الصحيح هو المادة الصالحة للتغذية والتربية، سواء كان هذا العلم آتيا من مصدر موثوق به، أو قائمًا على تجربة واستقراء يفيدان اليقين أو الظن الغالب. هذا هو الأساس فى قبول الفكر أو رفضه، بصفة عامة فى الإسلام..

ونلمس هذا فيما خاطب الله به المتمردين على الحقيقة. الرافضين لها، حين يطالبهم بالدليل على ما يقولون: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[٢].

﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾[٣] تقولون جزافا وبغير علم. ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة

---

(١) البقرة ١٨٩. (٢) سورة النمل ٦٤. (٣) الأنعام ١٤٨

ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم. إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا﴾[١].

وفى آية أخرى من سورة النجم نفسها يقول عن المشركين وآلهتهم ﴿إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان (أى حجة وعلم) إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[٢] أى العلم الحقيقى، والظن المبنى على الهوى والانحياز لا يعطى حكمًا صحيحًا. ولذا نجد القرآن يناقش فى بعض آيات منه، هؤلاء المشركين الذين يطمسون الحقائق، ويقولون على الله بغير علم، ويذكرهم عاتبًا عليهم مسلكهم ﴿ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾[٣].

وقبل هذه بأربع آيات يقول أيضًا: ﴿ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (متمرد متجرد للفساد)، كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾[٤] ثم يذكر لهم طريق العلم ويدلهم على موطنه، بعرضه دليلًا على البعث ﴿يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾.. الآية[٥] وفى آيات أخرى[٦] من سورة النمل يناقشهم ﴿آلله خير أما يشركون﴾[٧] ثم لم يتركهم عند هذا بل سألهم عدة أسئلة بعد هذا مباشرة، ليتأملوا ويصلوا إلى العلم والحقيقة فى وجود الله ووحدانيته. ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ ﴿أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده؟﴾ وبعد ذلك يسألهم ﴿أإله مع الله؟﴾، ثم يطالبهم بالدليل إذا قالوا نعم ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. فلا يقبل كلامًا منهم بغير دليل..

وفى آية أخرى يقول الله ﴿ولا تقف (لا تتبع) ما ليس لك به علم﴾[٨]، ويبين مسئولية الإنسان فى هذا، فيكمل الآية: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا﴾[٨].

---

(١) النجم ٢٧، ٢٨.

(٢) النجم ٢٣ والمراد بالظن هنا الظن الذى ليس له أساس سليم يقوم عليه، وهو غير الظن الغالب الذى قال الفقهاء بأن الأحكام يمكن أن تقوم عليه، لأنه ظن قائم على أساس سليم فكر فيه الفقيه وأداه اجتهاده فيه إلى رأى وظن راجح بناءً على القواعد الشرعية المتفق عليها.

(٣) الحج ٨. (٥) الحج ٥. (٧) النمل ٥٩.

(٤) الحج ٤. (٦) من ٥٩ إلى ٦٤. (٨) الإسراء ٣٦.

ويحمل الإنسان مسئولية جهله، وما يقوله أو يعتقده بدون علم وحجة، ويضع له الأساس الذى به يقبل أو يرفض.. يتكلم به، أو يكف عن الكلام.

وهذا هو الأساس الذى وضعه الإسلام لبناء المعتقدات، وقبول المعلومات، لتقوم ثقافة المسلم، ويتربى وجدانه وفكره على أسس سليمة موثوق بها، ويخطو فى الحياة على أرض صلبة، وتنطلق وجهة نظره إلى الله والرسل والمعتقدات وإلى الكون والأمور حوله من قاعدة صحيحة ومتينة[١].

وقد وفر القرآن والسنة للمسلمين مايحتاجون إليه فى صياغة حياتهم على الأرض، وما به يضمنون حياة أخرى طيبة حين يرجعون إلى ربهم، بعد انتهاء حياتهم الدنيا. وفر لهم ذلك تفصيلاً، أو فى شكل قواعد وتوجيهات عامة يستمدون منها التفصيلات بالاجتهاد. مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يطمئن على أتباعه حين أحس دنو أجله، ويقول لهم: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا: كتاب الله وسنتى».

ولذلك وجدنا المسلمين يحافظون بكل ما يملكون على سلامة هذين الأصلين، فيسارعون إلى كتابة القرآن، مما وجد مكتوبًا، مع مقابلته على ما حفظه الصحابة عن رسول الله.

---

(١) وعلى أساس هذا ويهدى منه وجدنا علماءنا سواء كانوا من علماء الدين واللغة أو من علماء العلوم الأخرى كالطب وغيره يحرصون على بناء عملهم وأقوالهم على الدليل سواء كان من القرآن أو السنة أو بالقياس عليها أو بالاجتهاد على ضوء القواعد العامة المستمدة منها أو كان الدليل من الملاحظة والتجربة بل ومن التجرد والشك قبل البحث والحكم «إذ الشكوك هى الموصلة للحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال» كما قال الإمام الغزالى «١١١١م» ووضع العلماء المسلمون منهج البحث العلمى الصحيح الذى أدعى الغربيون أن روجرز بيكون «١٢٩٤» وفرنسيس بيكون «١٦٢٦» هما اللذان وضعاه مع أن البحث العلمى دل على أنهما استفادا من منهج المسلمين قبلهم، وأن ديكارت «١٦٥٠» ومذهبه فى الشك أولاً، مستفاد من مذهب الغزالى حتى تشابهت العبارات عندهما.. وتدل الأبحاث العلمية على أن ديكارت استفاد من كتب الغزالى وأنه وجد على هامش كتاب الغزالى إشارة من ديكارت تفيد اعتزامه الاستفادة منه، وهذا كله يدلنا على تغلغل المنهج القرآنى فى أبحاث علماء المسلمين، وهو بناء الآراء على الأدلة اليقينية أو شبهها وعدم الاعتماد على ما دون ذلك من وهم أو مجرد تقليد أو خرافة (انظر فى ذلك الكتاب القيم «القرآن والمنهج العلمى» للمستشار عبد الحليم الجندى - دار المعارف ١٩٨٤ تحصل على زاد كثير وطيب فى هذه الناحية، وانظر أيضًا كتاب «المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت» للدكتور محمود زقزوق.

وحينما اتجهوا إلى كتابة الحديث وتدوينه بدلاً من الاعتماد على التداول الشفهى «وجدناهم يضعون الإسناد الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضمان صحته، شروطًا متعددة ومتشددة ثم يضعون للحديث من ناحية الثقة فيه، درجات الجودة: متواتر، صحيح، حسن، ضعيف.. بحيث يكون المسلم على بصيرة من صحة الحديث الذى يقبله، ويبنى عليه تصرفه[١] ثم لاحقوا الأحاديث الموضوعة فكشفوها.

إذا عرفنا هذا، وعرفنا - مما سبق - وجهة نظر الباحثين، حتى من اليهود أنفسهم عن مدى ما تتمتع به التوراة التى بين اليهود، والتلمود، وغير ذلك من كتبهم الدينية والتاريخية من ضعف الثقة فى صحتها. بل ما أثبته الباحثون[٢] من عدم صحة بعض ما جاء فيها بالدليل الملموس.. وعدم صحة البعض منها، يهز الثقة فيها كلها.. عرفنا بدون عناء أن النظرة العلمية المجردة ترفض الاعتماد الكلى عليها كمصدر سليم صالح لتغذية ثقافة الإنسان السوى وفكره وتربية وجدانه، أو تكوين وجهة نظر عنده، يعتمد عليها فى القبول أو الرفض، وفى النظر إلى الكون وتفسير بعض مظاهره. وإلى التاريخ والوقوف على أحداثه وإلى الأخبار الغيبية التى تتصل بشىء من الأمور الدينية.

لأن هذه الكتب ثبت عدم الثقة فيها علميًّا وفيما يستمد منها من أقوال بالتالى، فتكون النتيجة العلمية الحتمية رفض الاعتماد عليها وحدها كمصدر لمعتقدات أو معلومات تكون وجدان المسلم وثقافته، وعدم خلطها بالمعلومات الموثوق بها عنده..

وليس ذلك تجنيًّا، ولكنه مقتضى البحث العلمى والمنطق العقلى الحتمى، الذى يقول به كل إنسان منصف غير متحيز.. فمعلومات وأقوال غير موثوق بصحتها،

---

(١) راجع كتابى «أحاديث الرسول كيف وصلت إلينا» وكتب السنة الأخرى..

(٢) راجع كتاب الدكتور موريس بوكاى «دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة» طبعة دار المعارف المصرية ١٩٧٨ وهو الكتاب الذى صدرت ترجمته فى لبنان بعنوان «التوراة والإنجيل والقرآن فى ضوء العلم» طبعة دار الكندى ١٩٧٨ - بيروت، وقد بين فى هذا الكتاب عن طريق البحث العلمى المحايد - وكان مسيحيًّا - ما وجده من تناقض بين العلم اليقينى الواقعى وبين ما جاء فى التوراة والإنجيل، فى حين لم يجد فى القرآن أى تناقض..

لا يصح الاعتماد عليها مهما يكن موضوعها. وكتاب ضم قضايا غير صحيحة، ولا يمكن الثقة به، والاعتماد عليه علميًا.

فماذا كان موقف الرسول منها؟

ويتساءل الإنسان حين يعرف هذا عن موقف الرسول منها فى توجيه أمته: هل تركهم يأخذون منها؟ هل منعهم؟

والمفروض أن هذا التساؤل يأتى فيما لم يتعرض له القرآن، ولا الرسول بنص أو حكم دينى، لأن المسلمين فى هذه الحالة ملتزمون باتباع ما عندهم قولاً واحدًا: فيكون السؤال منصبًا على ما لم يكن عندهم فيه نص، هل يأخذون مما عند غيرهم أو ماذا يفعلون؟

لقد عنى الباحثون من المسلمين بهذا الموضوع من قديم، ووجدوا أمامهم أحاديث فيه، لكن بينها تعارض أو شبه تعارض.

أولها: حديث رواه البخارى عن أبى هريرة يقول: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول اللهصلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا.. وما أنزل إليكم الآية[1].

الحديث يشير إلى تعود المسلمين سماع التوراة وتفسيرها من اليهود، وأن الرسول لم يمنعهم ولكنه وجههم إلى إهمال ما يسمعون.

وروى البخارى أيضًا: لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء» فاجتمع النهى عن

---

(١) البخارى جـ ١٧ ص ١٠١ طبعة الحلبى ١٩٥٩. ويلاحظ أنه لا يوجد آية بهذا النص الذى ذكره البخارى فآية آل عمران ٨٤ تقول: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا﴾.. وآية البقرة١٣٦ تقول: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم﴾ وآية العنكبوت ٤٦ تقول: ﴿وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ ورواية البخارى لا تتفق فى صيغتها مع آية من هذه الآيات الثلاث، ومع ذلك لم يعلق عليها الشارح «ابن حجر» فى حين اقتصر البخارى فى باب التفسير جـ٩ ص ٢٣٧ فى ذكر الحديث عند قوله: «وما أنزلنا إلينا» ولم يحرر ابن حجر أية آية ذكرها الرسول ويصحح نصها وإن كانت الآيات تتلاقى عند معنى واحد لكنا هنا نحرر النص.

السؤال، والنهى عن التصديق أو التكذيب حين يسمعون بدون سؤال ليشمل الصورتين..

وينضم لهذا حديث آخر رواه الإمام أحمد رضى الله عنه وابن أبى شيبه والبزار من حديث جابر كما جاء فى فتح البارى:

إن عمر رضى الله عنه أتى النبى بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا بن الخطاب؟» (أى أمتحيرون وشاكون فيما جئتكم به حتى تلجأ لمثل هذا؟) «والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شىء فيخبرونكم بحق فتكذبون به، أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده لو أن موسى عليه السلام كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعنى[1]».

وهذا وما ذكرته فى الهامش من أحاديث كلها تدل على أن واجب المسلم أن يتوقف فيما يسمعه من أهل الكتاب فى الأمور المحتملة فلا يصدقه ولا يكذبه، لأنه قد يصدق ما هو باطل أو يكذب ما هو صحيح، لأن ما فى هذه الكتب قد اختلط فيه الصحيح بالباطل ولا تدرون ما هو الصحيح، وما هو الباطل؟ فالأسلم أن تتوقفوا عن تصديقهم وتكذيبهم فيما لا نص فيه عندكم - تسمعون الكلام بإذن ويخرج سريعًا من الأذن الثانية، فلا تبالوا به ولا تتورطوا وتوقعوا أنفسكم فى مشاكل..

ولقد نقل ابن حجر عن ابن بطال عن المهلب قوله: «هذا النهى إنما هو فى سؤالهم عما لا نص فيه» وأما قوله تعالى للرسول ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾، فالمراد من آمن منهم، وهذا رأى وهناك آراء أخرى سبق بعضها. وخلاصتها أن السؤال هو عن وجود مبدأ إرسال الرسل وإنزال الكتب

---

(١) استدل به المرحومان الشيخ الذهبى والشيخ أبو شهبة فى بحثهما عن التوقف أو الأخذ فى كتابيهما عن الأسرائيليات والتفسير طبع مجمع البحوث وذكره ابن حجر فى شرحه لباب «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء» ص ١٠٠ جـ١٧ وقال إن فيه راويًا ضعيفًا، ولكنه قال: «إنه وردت أحاديث تشهد بصحته، وذكر رواية أخرى تقول: لا تسألوا أهل الكتاب فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم فتكذبوا بحق، أو تصدقوا بباطل» وقال سنده حسن.

عليهم[١] وكان المشركون يطعنون فى هذا المبدأ، واليهود لا يمكنهم إنكاره ! ولم يتغلب عليهم حقدهم وهواهم.

وكذلك روى البخارى[٢] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله تقرءونه لم يُشب[٣]، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا رجلًا منهم قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم».. وأسلوب ابن عباس هذا يصور ظاهرة انكباب الصحابة على أهل الكتاب يأخذون عنهم ويدل على المرارة التى فى نفسه من هذا.. فمتى كانت هذه الحالة؟ ألم يوقف هذا الانكباب من الصحابة قول رسول الله: «لا تسألوهم عن شىء؟.. أو كان ناتجًا عن العمل بالحديث الآتى الذى يقول فيه الرسول: «وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج».

ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم يتألم ابن عباس؟ ويقول لهم: كيف تسألون أهل الكتاب؟ ويستنكر ذلك وقد أجازه الرسول؟ هل يمكن أن نقول: إن هذا الحديث المجيز كان أولًا، وقت المهادنة، وحب الرسول لموافقتهم ليجذبهم إليه فقال: حدثوا، ثم لما تغيرت الظروف، ويئس الرسول منهم فى نهاية مهادنتهم، نهى عن سؤالهم كما أمر بمخالفتهم، ويكون الحديث الآتى ممثلًا للحالة والفترة الأولى: فترة المهادنة؟ وهو:

---

(١) ولذلك ترى فى الآية السابقة بعد هذا يقول الله: ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ ٩٤ يونس وترى آية أخرى تتعرض لمبدأ التوحيد: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ الزخرف ٤٥، والسؤال هو لا تباع من أرسلنا من قبلك، وهم اليهود هنا عن مبدأ التوحيد الذى يرفضه المشركون. واليهود لا يمكنهم إلا الشهادة بالتوحيد ضد المشركين، وإن كانوا أحيانا يضلون لهوى فى نفوسهم فالأسئلة ليست فى تفاصيل، ولكنها فى المبادئ العامة التى تقرها الأديان ويرفضها المشركون.. وقال المفسرون: المراد بالذين أوتوا العلم هم اليهود فقد أوتوا التوراة من قبل.. وسبق الكلام فى هذا.

(٢) فى الباب نفسه ص ١٠٢ جـ١٧.

(٣) أى لم يخلط بشىء يكدره أو يعكر صفاءه من «الشوب» بمعنى الخلط والشائبة واحدة «الشوائب: وهى الأقذار والأدناس» ١هـ مختار الصحاح..

ثانيهما: ما رواه البخارى فى صحيحه قال: عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».

فهو يجيز لهم وبدون حرج أن يحدثوا عن بنى إسرائيل ويأخذوا عنهم، ولا ينسبوا شيئًا من ذلك للرسول، فمن كذب علىّ متعمدًا الحديث..

ومفهوم أن أمر الرسول لصحابته بالتوقف أو النقل عنهم إنما هو - كما قلنا - فى الموضوعات التى لم يأت القرآن والسنة ببيان فيها، لأنه إذا كان فيهما بيان للموضوع فلا يجوز الالتجاء إلى غيره. وحينئذ يترتب على حديث «حدثوا.. ولا حرج» أن يأخذ الصحابة عن بنى إسرائيل كل ما يخبرونهم به فى الأمور التى لم يتعرض لها القرآن ولا السنة إثباتًا أو نفيًا.. وهذا أمر بالغ الخطورة، إذ لا يخفى عن الرسول ما حفلت به كتبهم من خرافات وأباطيل. وما يؤدى الأخذ منها إلى حشو أدمغة المسلمين بمعلومات باطلة وتصورات زائفة.. وبالتالى يخلطون الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، فيما يفهمونه ويكونون به فكرًا ووجهة نظرهم إلى الأشياء.. فيحدثون الناس بما لديهم من بضاعة بنى إسرائيل الزائفة، ويكونون عقلية المسلمين، ويغذون ثقافتهم بهذا الزيف..

وإن كان من الممكن أن يقال: إن الرسول كان موجودًا، وكان هو الميزان والمرجع الأخير لهم فيما يقبلون أو يرفضون.

وبنو إسرائيل اليهود لا يقتصر ما يحدثون به الناس ومنهم المسلمون على النقل عن التوراة، حتى لو سلمنا جدلاً بصحتها كلها، بل يحدثون الناس بما حفلت به كتبهم الأخرى من شروح للتوراة، وما حفلت به هذه الشروح من خرافات وأباطيل، وأمر الرسول لأصحابه ليحدثوا عن بنى إسرائيل دون حرج، هو أمر لأن يأخذوا وينقلوا عنهم ويصدقوهم، وأمر بالتالى لأمته وهو معنى «حدثوا» بأن يأخذوا عنهم[1].

---

(١) رأيت فيما كتبه زميلنا المرحوم الشهيد الدكتور الشيخ محمد الذهبى فى كتابه «الاسرائيليات فى التفسير والحديث» طبع مجمع البحوث ١٩٦٨ ص ٥٢ أنه يحاول التوفيق بين حديث «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم» وحديث «حدثوا» بأن الحديث الثانى يجيز الحكاية عنهم مجرد الحكاية. =

فهل معنى هذا أن يأخذ المسلمون بما جاء فى «التلمود» من تحقير لكل من عدا اليهود ونحن منهم؟ ويحدثوا الناس به ويروجوه؟ حتى يغرسوا فى المسلمين أنهم شعب حقير بالنسبة لليهود؟ وحتى ينظر الناس إلينا بهذا المنظار والله يقول: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

وهل نأخذ عنهم، ونتحدث للناس: أن عمر العالم ألفا سنة بعد ميلاد المسيح[١] فيكون قد بقى على فناء العالم بضع عشرة سنة..؟

ويحدث الصحابة ومن يأتى بعدهم الناس بهذا؟ وهو أمر لم يتعرض له القرآن والسنة؟

ويدخل تحت «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»؟ ورواته هم الصحابة.. ويتحملون معهم وزر هذا الكذب؟ هل نأخذ عنهم ونتحدث للناس بما جاء فى سفر التكوين «الذى يعطى أنسابًا.. وتواريخ، تحدد أصل الإنسان - خلق آدم - وتاريخه بحوالى ٣٧ قرنًا قبل المسيح[٢] يعنى «٣٧٠٠ سنة» والعلم يثبت بأدلته المعملية غير هذا؟

= وهذا الاتجاه فى التوفيق فى غاية الخطورة ولعل هذا التوفيق مما رآه السابقون ممن نقلوا حكايات وأخبار فى غاية الغرابة والكذب الظاهر وشحنوا بها كتب التفسير والحديث، ومن هنا أتى الخطر الذى نتكلم عنه على ثقافتنا، والذى تكلم عنه الدكتور الذهبى وقص علينا نتفًا غريبة من هذه الأخبار ومن أجل هذا لا أذهب مذهبه فى هذا التوفيق - ولا أرى ما فعله السابقون ممن نقلوا هذه الأخبار الغريبة عن الإسرائيليين إلا جناية على عقلية المسلمين وعلى ثقافتهم.. سامحهم الله.. ومن الغريب أن نرى ابن تيمية: فى أصول التفسير يذهب هذا المذهب وهو المحتاط دائمًا لدينه، وكأنه لا يرى بأسًا من أن نذكر فى التفسير أن لون كلب أهل الكهف كان أبيض ، وعصا موسى كانت من شجر التوت، ونذكر أسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم إلخ وهو الذى عذب كثيرًا فى محاربته البدع والخرافات.

وما أحسن ما نقله فتح البارى ص ١٠٠ جـ١٧ عن ابن بطال قوله: فإذا لم يوجد نص أى بالتصديق أو بالتكذيب ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم وغنى عن حكاية قولهم أيضًا لأن حكاية قولهم وروايتها مصيبة وإلا فماذا يكون موقف المسلم من حكاية ابن عباس أو عبد الله بن عمرو أو قتادة أو مجاهد لأقوالهم؟ أليست حكاية هؤلاء لكلامهم يكسبه عندنا احترامًا وقبولاً وهم حين رووه لم يعلقوا عليه ومعناه عند القارئ أنهم يقبلونه ويقرونه، وإلا لرفضوا نقله أو عقبوا عليه؟ إنه من هنا جاء الخطر الذى نشكوا ونئن منه الآن..

(١) راجع كتاب «التلمود تاريخه وتعاليمه «لظفر الإسلام خان ص ٥٨ الطبعة الثانية ١٩٧٢ نشر دار النفائس بيروت.

(٢) من كتاب «دراسة الكتب المقدسة» للدكتور موريس بوكاى ص ١٢ طبع دار المعارف =

وهذا أمر قد سكت عنه القرآن والسنة، فهل تحدث عنهم بهذا ولا حرج؟ ونصادم بذلك ما أسفر عنه العلم بطريق لا يقبل الشك، من وجود آثار لأعمال بشرية نستطيع وضع تاريخها فيما قبل الألف العاشرة من التاريخ المسيحى، دون أن يكون هناك أى مكان للشك» ثم يقول «دكتور بوكاى»: «وبناء على ذلك فإن معطيات التوراة الخاصة بقدم الإنسان غير صحيحة[١] أى بتاريخ ظهور الإنسان على الأرض بـ ٣٧٠٠ سنة قبل المسيح.

فهل نقبل هذا ونأخذه عنهم ونحدث الناس به؟. ونروج أكاذيب التوراة والتلمود واليهود؟ ونكون كذا بين مثلهم؟ ونغذى ثقافتنا بهذه الأكاذيب والخرافات؟ تحت مظلة حديث «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»؟!!

هل يمكن أن يأمر الرسول أو يأذن بمثل هذا؟ ويكون هذا هو التصريح الأخير للرسول؟!

ثم متى كان هذا الأمر أو الإذن؟

وهذا التحديد مهم جدًّا، هل كان ذلك فى الشهور الأولى للرسول فى المدينة فى أثناء الفترة التى هادنهم فيها وأحب موافقتهم، واتجه لقبلتهم، مما تحدثنا عنه من قبل؟ وهى مدة لم تزد عن سنة وخمسة شهور؟.

لو سلمنا بهذا الحديث لأنه من رواية البخارى، فلا يمكن أن نتصور إلا هذا، مع ما فى التسليم به حتى على هذا الوجه من أخطار على عقلية المسلمين وثقافتهم ومع حرص الرسول على أن يحصر اهتمامهم كله فى القرآن فى هذه الفترة. حتى أمر بعدم كتابة الحديث، حتى لا يزاحمه، ويختلط به ويشتبه أمره بالقرآن على صحابته،

= القاهرة ١٩٧٨ وطبعة بيروت، وقد أثبت صاحب هذا الكتاب أيضًا عدم صحة التوراة فى تحديدها لعمر الإنسان على الأرض وإعتبرها مناقضة للعلم اليقينى.

(١) المصدر السابق الصفحة نفسها وقد بين المؤلف تناقض التوراة والإنجيل مع الحقائق العلمية فى حين خلا القرآن تمامًا من هذا التناقض. كتاب جدير بالقراءة، والمؤلف محتاط ويقول بظهور الإنسان قبل المسيح بـ ١٠ آلاف سنة على حين دلت اكتشافات لوجود جماجم للإنسان ترجع لأكثر من مليونى سنة.

ولا يعقل أن يأمر الرسول بعدم كتابة حديثه، ثم يقول لهم «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج».

إن كلا الفرضين - حدوث هذا القول فى فترة المهادنة أو بعدها - مر شديد المرارة، وخطر شديد الخطورة..

وإذا كان لابد لنا من التسليم بما رواه البخارى ولا محالة، فنحن نختار مضطرين أهون المرين وأخف الخطرين، ونقول: إن هذا حدث فى فترة المهادنة... فى الفترة الأولى[1]، لأنه لايمكن بعد أن اتجه الرسول إلى مخالفتهم حتى فى الظواهر الشكلية من إرخاء اللحى وخضب الشعر بالحناء والصلاة فى النعال مما سبق أن ذكرناه، وهو بعض من كل بجوار مخالفتهم فى الاتجاه للكعبة بعد بيت المقدس، حتى قالت اليهود: ما بال محمد لا يريد أن يترك أمرًا من أمورنا إلا خالفنا فيه.. لا يمكن أن يكون هذا الأمر بالمخالفة هو اتجاه الرسول وتوجيهه لصاحبته ثم يقول لهم: حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج!!...

هل يقول الرسول خالفوهم فى هذه المظاهر، ومع ذلك يقول حدثوا ولا حرج؟ وقد أجهد العلماء القدامى والمحدثون - أذهانهم للتوفيق بين الحديثين، وقالوا فيما قالوه من أوجه الجمع بينهما: إن الثانى وهو «حدثوا» هو فى الأمور التى لا ضرر فيها على العقيدة.. يعنى الأمور التى يعتبرونها هامشية.

وما هى بهامشية فى تكوين وجدان المسلم، ووجهة نظره فى النظر للكون والإنسان وحكمه على الأشياء.

هل ينقل عنهم أن الأرض يحملها حوت أو على قرن ثور، والزلازل تحدث

---

(١) على عكس هذا يرى ابن حجر فى شرحه البخارى إذ يقول: إن حديث «حدثوا ولا حرج» كان بعد أن استقرت الأحكام أما الأول: لاتصدقوهم.. فكان فى مبدأ الإسلام، كأن الثانى: «حدثوا» مسخ للأول وكأن باب الأخذ عن اليهود والتحدث به للناس انفتح على مصراعيه للمسلمين، ليصدقوا خرافات الإسرائيليين ويروجوها، وقد عرفنا الآثار السيئة لهذا الاتجاه فهل مع ذلك نقول إن حدثوا قد مسخ لا تصدقوهم ولا تكذبوهم، هل معقول أن يوحى الرسول بأمر يجر على عقول المسلمين الخراب والتخريف؟ إن هذا تورط من ابن حجر ليجمع بين الحديثين. راجع الإسرائيليات للدكتور الذهبى طبعة الأزهر ص٥٣، ٥٤ وما بعدهما ومشى خلفه كثيرون..

حين ينقل الثور الأرض من قرن إلى قرنه الآخر؟ هل نأخذ منهم كما جاء فى تفسيراتهم وشروحهم من تقريرات باطلة عن البرق والرعد والزلازل، مما أخذه بعض مفسرينا فى كتبهم؟ ويثير سخرية الناس علينا وعلى الذين دونوا ورددوا هذه الأباطيل والخرافات بجوار القرآن الكريم وفى تفسيره؟.. لتقوم ثقافة المسلم وفكرة على الخرافات والأباطيل؟ هل نمشى وراءهم فيما أثبت العلم الحديث بطلانه من تاريخ ظهور آدم على الأرض؟.

إن بعض الذين حاولوا الجمع بين الحديثين يقولون: إن ما هو مسكوت عنه عندنا تجوز روايته عن بنى إسرائيل وتحديث الناس به وحكايته. دون تصديقه أو تكذيبه... أى مجرد حكاية...

هل هذا معقول؟.. ولماذا تحملنا محاولة الجمع على إخفاء رءوسنا فى الرمال؟

هل معقول أن أجلس فى درسى وأحكى لطلابنا ما جاء من الإسرائيليات عن الرعد والبرق ولون كلب أهل الكهف، وجنس خشب سفينة نوح، وعصا موسى، وأنواع الطيور التى ذبحها إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وعمر العالم، وغير ذلك مما ملئت به كتب التفاسير من إسرائيليات، وأتركهم، فلا أعلن تصديقى ولا تكذيبى لما حكيته. والطلاب يقولون جاء ذلك فى الطبرى – فى القرطبى.. فى كتاب كذا.. وقاله شيخنا فى الدرس..؟

أفبعد هذا نظن أن الطلاب لن يتأثروا ثم يخرجون يحكون كذلك للناس ما سمعوه وقرءوه حتى يصيروا علماء، ويحكونه أيضًا كما هو حاصل الآن؟.. وياويل عقول الناس حينئذ مما نغذيها به من ضلالات ونقول نحكى فقط؟!! ونكرر قصة القاتل والرجل العبيط الذى رأى واحدًا يقتل رجلا، فلمح أن العبيط رآه فهدده بالقتل إن هو قال لأحد ما رآه. فمشى العبيط بين الناس يقول «آه يهددنى فلان بالقتل إن قلت إنه قتل فلان.. وهو أنا عبيط أقول علشان يقتلنى؟ أبدا ما أقولش فلان قتل فلان. وأنا مالى أقول فلان يقتل فلان، أبدًا ما أقولش.. وعرف الناس من العبيط هذا الحادث وذهبوا لمكانه وقبضوا على القاتل قبل أن يهرب...

فأنا أحكى الإسرائيليات، والمفسرون يحكونها ويملئون بها كتبهم، مجرد حكاية.. دون أن أتعرض لها بالتكذيب أو التصديق، لأن الرسول قال «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم» وأخفى عيونى عن الخطر؟ ونكون قد وفقنا بين الحديثين، حديث «حدثوا.. ولا حرج» وحديث آخر «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم»؟ وانطلقنا على آخر سرعة، نحدث الناس بالإسرائيليات ولا نعلق عليها.. ما شاء الله!!.

فهل هذا معقول من علماء أمة قوامة على الحق، حريصة على العلم يعنى العلم لا الخرافات؟...

هل هذا معقول أن يصدر عن الرسول بهذه الصورة؟

لقد وقف العلماء مكتوفين أمام صحة السند فى الحديث الذى رواه عبد الله بن عمرو: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»، وهو الذى حصل على حمل بعيرين من كتب اليهود يوم اليرموك! ولم يبحثوا موضوع الحديث أو متنه. كما نحاول بحثه بقدر الإمكان اليوم.

وقد أخذ عبد الله بن عمرو - التقى الورع والصحابى الجليل - يحكى كما هو مفهوم مما لديه من هذه الكتب ومما سمعه، وما عليه شىء فالحديث الذى رواه يقول «حدثوا.. ولا حرج «وحذا حذوه أمثال له، وثقوا فى كتب اليهود، وخاصة فيمن أسلم من أهل الكتاب[1] وسألوهم عن أشياء لم يتعرض لها القرآن لعدم الفائدة من التعرض لبيانها، والذين أسلموا من أهل الكتاب لهم معرفة بكتبهم من قبل، فكانوا يحكون ما عرفوه، والآخرون يروون عنهم، وتشيع الرواية لأن الرواة أناس طيبون موثوق بهم، لكن هل مصدر ما يروونه من

---

(١) كعبد الله بن سلام، ووهب بن منبه وتميم الدارى. وعبد الله بن سلام كان من أكابر علماء اليهود وكان مطلعًا على ما تتحدث به كتبهم عن مجىء الرسول، ولذا كان أول المسارعين من علماء اليهود إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم حين وصل للمدينة، أما تميم الدارى فمن الصحابة وكان نصرانيًّا وأسلم، واشتهر بالقصص حتى قيل إن عمر آذن له بالتحديث فى المسجد. وأما وهب بن منبه، ومثله كعب الاحبار فمن التابعين. وقد أكثرا من الروايات الإسرائيلية.. حتى قال عمر لكعب: «لتتركن الحديث عن الأول، أو لألحقنك بأرض القردة» ص ٨٠ الإسرائيليات للمرحوم د. الذهبى.

الأصل موثوق به علميًّا؟ هل قالوا حين حدثوا أنهم لا يصدقون ذلك؟ وحتى إن قالوا فهل يضمنون أن الذى سمع منهم لن يحكى لغيره دون أى تعليق؟ ولقد كان هذا هو الاستغزاء أى الغزو الفكرى الذى جلبناه، ولوثنا عقليات المسلمين به، وبنينا ثقافتهم، وغذيناها بالأباطيل والخرافات، وعلى مر القرون...

وقد رأينا المفسر الكبير: ابن جرير الطبرى، يحشو تفسيره بالكثير من هذه الإسرائيليات وفيها ما روى عن ابن عباس وغيره من الأفاضل، ويضع حجر الأساس فى ذلك لمن جاء بعده من المفسرين!!

ويقول علماء التفسير عنه: إنه تفسير بالمأثور!! وأى مأثور؟ وأنه إمام المفسرين.. كان ينقل كل ما تداول بين الناس وتغذت به العقول من هذه الإسرائيليات المتداولة دون أن يتدخل فيها حتى يروى عن ابن عباس مثلا روايتين متناقضتين فى نوع الشجرة[١] التى أكل منها آدم وحواء فى الجنة... هل هى العنب؟ هل هى التين؟ هل هى غير ذلك؟

مما أتاح للأقوال فيها مساحة من كتابه، وعنى بحشدها على علاتها. وجاء الذين بعده فنقلوها. ومع ذلك نراه بعد حشدها يتركها ولا يلتزم بها. بل يقول رأيه الخاص فى تفسير الآية وربما علق على ما حشده من روايات إسرائيلية بأنه لا حاجة لها فى فهم الآية وأخذ العبرة منها[٢] إذ لو كان بيان العبرة متوقفًا على شىء من هذه التفاصيل لذكرها الله...

ويأتى كلامه ورأيه هذا فى غاية الدقة وبعيدا عن أى حشو، وليته اقتصر عليه فكان خيرًا كله، لكنه حشد غثاء من المرويات الإسرائيلية الخرافية، وسجلها معزوة إلى صاحبة وتابعين أجلاء ووضعها أمام الأجيال المعاصرة له، والأجيال

(١) تجد ذلك فى تفسير ابن كثير أيضًا، فرأى لابن عباس برواية عنه أنها «الكرم» أى العنب، ورأى له برواية عنه أيضًا، إنها السنبلة أى سنبلة القمح.

(٢) فقال مثلا فى تفسير آية الشجرة هذه «لا علم عندنا بأى شجرة على التعيين لأن الله لم يضع دليلا على ذلك فى القرآن أو السنة ثم يقول: وذلك علم إذا علم لم ينفع العام به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم» وليته اقتصر على رأيه ولم يجمع هذه الإسرائيليات مما كان أساسًا لشيوعها بعده، وفى تعليقه هذا مع حسنه لا نراه ينفر الناس صراحة منه، وبين ضرره على الغذاء العلمى للمسلمين. ولعل عصره لم يكن يحتمل هذه الصراحة فاكتفى بالحياد!!.

التى من بعده، دون تنبيه على خطرها، واقتدى به ومشى خلفه المفسرون، ولم يعنوا أحيانًا كثيرة بسلسلة الرواة، بل اكتفوا برأى مما جاء فى هذه الإسرائيليات عن اسم الشجرة مثلا وذكروه فى تفسيرهم كأنه قضية مسلمة..

والأدهى والأمر أنهم يروون هذه الآراء عن رجال أكابر: عن ابن عباس عن الحسن البصرى، عن سفيان الثورى، عن مجاهد، مما يضفى عليها قداسة وثقة عند من يسمع ذلك أو يقرؤه.

وتسأل طلاب العلم والعلماء عن اسم الشجرة الآن، فيقولون لك ما قرءوه فى الكتب المختصرة التى تعلموا عليها، وأخذوا ما فيها بثقة هى كذا، كأن ذلك قد جاء فى قرآن أو حديث صحيح!!.

وبهذه الطريقة حشوا أدمغة المتعلمين وعامة الناس بهذه الأباطيل، التى لا أصل لها يوثق به عندنا، وأثر هذا على فكر المسلمين وثقافتهم وأوجد فيهم فكرًا خرافيًّا محشوا بالأباطيل، وبهذا الفكر ينظرون إلى الحياة وما فيها، وهذا كله من آثار فهمهم لحديث «حدثوا» واعتماده!!..

وأذكر لك ما قرره المفسرون عن الرعد والبرق فى آية ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾[1] كنموذج صغير..

قال السيوطى المفسر (توفى ٩١١هـ): إن الرعد ملك أو صوته، والبرق سوطه (عصاه) يسوق به السحاب. يعنى صوت الملك وهو «يشخط» فى السحاب ويأمره ومعه العصا يضربه بها فيحدث هذا البرق!!

والداهية الكبرى فى هذا أنهم ينسبون هذا إلى ابن عباس وعلى وغيرهما، ويذكرون رأيًا لمجاهد وهو ممن اشتهروا بالتفسير: أن الرعد اسم الملك. وهكذا نجد أقوالا كثيرة فى هذا وفى غيره، محكية عن رجال من علمائنا الأفذاذ، من الصحابة[2] وغيرهم، فماذا يمكن أن يكون فى ذهن الطالب أو العامى الذى يقرأ

---

(١) البقرة/١٩.

(٢) راجع تفسير المنار لهذه الآية وما قاله المرحوم الشيخ محمد عبده تعليقًا مرًّا على هذه الأقوال.

هذه الآراء أو يسمعها إلا أن يقول بهذا ويحكيه لغيره متمسكًا به لأنه مروى فى كتب التفسير عن رجال موثوق بهم.

وربما رفض التفسير العلمى التجريبى لهذا أو لغيره من الظواهر الكونية، واقتصر فكره على هذه الخرافات المروية عن كبارنا عن بنى إسرائيل.. ويصير سخرية بين المتعلمين ونقول لهم خذوا دينكم عنه..

ولا نستبعد هذا، فلا يزال فى المسلمين بقايا محنطة الفكر من طلاب وعلماء يرفضون تصديق كروية الأرض، والصعود إلى القمر، ومراكب الفضاء إلخ، مع أنهم ربما شاهدوا ذلك فى التليفزيون أو «المراء» كما كان يعبر عالمنا العلمى الأديب الدكتور أحمد زكى عليه رحمة الله، ولقد استعمت إلى شىء من هذا منهم وأنا أدرس لهم وقرأت كتبًا مطبوعة طباعة جيدة تمثل وجهة نظرهم هذه وتنبع من ثقافتهم التى غذيت تغذية غير سليمة، ولقد كنا واقعين تحت تأثير هذه الخرافات الإسرائيلية التى ملئت بها كتبنا قبل أن تتفتح عقولنا. لأننا درسناها فى الكتب.. أو قرأناها خارج الكتب المقررة[١].

جناية على ثقافتنا:

وإذا كانت الثقافة هى فكر ووجدان ووجهة نظر للأشياء، وعلى أساسها يقبل الإنسان، أو يرفض، وهى أمر معنوى داخلى فى الإنسان ينظر من خلاله لمن حوله وما حوله..

فإن مما لا شك فيه أن هذه الثقافة أو هذا الوجدان أو الأمر الروحى المعنوى، بداخل الإنسان، إنما يدخل فى تكوينه مجموع المعلومات التى يتلقاها الإنسان عن دينه، عن تاريخه عن لغته، عن الكون الذى يعيش فيه. ومما يستطيعه هو من تأمل شخصى إن كان يستطيع.. ومن هذا كله تتربى فيه حصيلة

---

(١) ولقد كنا نتندر ونحن طلاب صغار على أن الأرض كروية ونتندر على مدرس الجغرافيا الذى يذكر لنا سبب الزلازل ونحن نقرأ أو نسمع غير ما يقوله من أن الأرض على قرن ثور أو على ظهر حوت. ويحصل الزلزال من تحرك الحوت أو من نقل الأرض من قرن إلى قرن!! ونخرج ونحن أطفال نطبل ونزمر ونقول: ياللا يا بنات الجنة سيبوا القمر يتهنا عند كسوفه.. إلخ.

كلية، هى ثقافته، وجدانه، فكره، الذى يكيف به نفسه وتصرفاته حوله.. ويبنى عليه نظرته للحياة..

فإذا كانت تغذيته صحيحة وسليمة، كان وجدانه وفكره سليمًا، وهذا هو ما يحرص عليه الإسلام كما قدمنا.. وإذا كانت مواد تغذيته مغشوشة وغير سليمة فإن كان فيها تحريف أو أباطيل أو خرافات أو شبه ذلك كانت ثقافته مغشوشة معتلة، مريضة بقدر ما أخذ وكانت نظرته لأمور الحياة غير صحيحة دائما.

قد يرفض حقيقة، ويصر على رفضها كهؤلاء الذين يرفضون تصديق الصعود إلى القمر، أو الدوران حول الأرض أو حول الكواكب الأخرى الآن.

أوالذين يرفضون الحقيقة الملموسة التى تقول إن الأرض كروية، لوجهة نظر لهم[1]، وقد يقبلون ما هو باطل، ويصرون على الإقبال عليه والتمسك به لمجرد أنهم تربوا عليه، وهذا هو ما يرفضه الإسلام. لأنه دين العلم، دين الحجة والبرهان، دين الحقائق «والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها» وجدها عند مسلم أو عند غيره حتى ولو جحد الإله. كما نأخذ العلم عن روسيا.

والحكمة هى الحقيقة فى أية ناحية من النواحى العلمية، النظرية أو العملية الملموسة، يجب أن يتسلح بها المسلم ليكون عزيزًا محترمًا بين الناس ويأخذها عن أهل العلم بها، ويسافر إليهم، ليتعلمها ولو فى الصين.

ومن هنا نقول: إن ما اختلط بتفسير القرآن وبالتاريخ وغيرهما من الإسرائيليات والخرافات التى جلبها إلينا أناس منا فضلاء، أو غير فضلاء ولهم

---

(١) وأنا مدرس فى بلد عربى فى أحد معاهدها الثانوية الدينية ١٩٥٤ حولت إلى مدير المعهد عرائض وشكاوى من بعض القضاة الشرعيين والعلماء يحتجون فيها إلى الجهات العليا على أن كتب المدارس فيها: أن الأرض كروية، وفيها كذا وكذا، مما هو من الحقائق العلمية العامة، ولكنهم رأوا فى ذلك إفسادًا لعقول الطلاب ودينهم.. وكانت وزارة المعارف هناك تستورد الكتب حينذاك من مصر، وتحرص على قطع بعض الأوراق من الكتاب، حتى لا تثير ثائرة بعض العلماء وتجر على نفسها المتاعب، كان ذلك فى الخمسينيات، ولكنى أعتقد أن الأمر فى ذلك قد خف نوعًا ما، أو زال الآن، وقد رد المعهد حينذاك بواسطة وكيله بذكر أقواله للعلماء الأعلام عندهم عن كروية الأرض..

أغراض قد جنى على ثقافتنا وجعل منا أناسًا غير أسوياء فى وجدانهم وفكرهم ونظرتهم للحياة، بل ولأمور متعلقة بالدين.. مع الأسف الشديد..

وقد أضاع هؤلاء جهدًا ووقتًا من حياتهم فى إشاعة وترويج هذه الخرافات الإسرائيلية أو المسيحية وساعدهم على تحمل العناء، حسن نيتهم غالبًا، ونظرتهم لما يعملونه على أنه خدمة للعلم والدين ولأمتهم..

إن الغالبية العظمى ممن اشتركوا فى تلويث ثقافتنا وإفساد وجداننا كانوا من هؤلاء الحسنى النية. الذين إعتقدوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطاهم جواز المرور لهذا، بقوله: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»...

وليسمح لى القارئ وليغفر لى الله، إن قصر فهمى، إذا قلت: إننى حتى الآن لم أفهم تمامًا هذا اللغز.. وهو النقل عن بعض الصحابة والتابعين، وخيار العلماء المسلمين، على الأخذ عن بنى إسرائيل، وترويج أباطيلهم ونقلها فى تفسير القرآن، حتى فى أمور تسىء إلى الأنبياء، كما حصل بالنسبة إلى داود عليه الصلاة والسلام، مما يفسد نظرتنا الدينية، فكيف يفعلون هذا، لاسيما وغيرهم من الصحابة كان يهاجم هذا المسلك فى الوقت نفسه كعمر، وسيأتى موقفه حتى ابن عباس أيضًا هاجم الذين يسألون أهل الكتاب. ومع ذلك تروى عنه الإسرائيليات...

إن اللغز عندى هو ما يذكره الذين يتحدثون عن موقف الصحابة من هذا الأمر.. فيذكرون أن عبد الله بن عمرو، وابن مسعود وغيرهما[1] كانوا يسألون أهل الكتاب، ولاسيما الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام، فيفيدونهم بما فى جعبتهم من قبل إسلامهم من بضاعة إسرائيلية، وهؤلاء الصحابة يتقبلون

---

(١) يقول المرحوم الدكتور الذهبى ص ٥٧ «لا شك أن نفرًا من الصحابة كانوا يرجعون إلى بعض من أسلم من أهل الكتاب، يأخذون عنهم بعض ما عندهم من جزئيات الحوادث التى عرضت لها كتبهم بتفصيل، وعرض القرآن الكريم لها بإيجاز وإجمال»، ويذكر من قيل عنهم ذلك واشتهروا بالنقل عن أهل الكتاب: مثل أبى هريرة وابن عباس !!. وعبد الله بن عمرو، ويزيد غيره عليهم: ابن مسعود، مع ما لهؤلاء الكبار من فضل وورع ومنزلة.. ومع ما عرف من اعتراض ابن عباس عليهم، وإن كان يحاول الدفاع عنهم (انظر كتابه «الإسرائيليات وكتابة «التفسير والمفسرون»).

ويتحدثون بما سمعوه.. وأن عبد الله بن عمرو حصل على كتب إسرائيلية كثيرة فى إحدى الغزوات وعكف عليها يأخذ منها.. ويتحدث للناس بما وجده فيها..

وأن بعض التابعين قد حذوا حذو هؤلاء، وأن تابعيهم حذوا حذوهم، وهكذا امتدت السلسلة. ألم يكن أمامهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء»؟

ألم يعرفوا غضب الرسول من عمر بن الخطاب حين وجد فى يديه ورقا يقرؤه من علم أهل الكتاب؟ حتى قام وخطب الناس فى هذا يحذرهم؟

ألم يعرفوا قطعًا أوامر الرسول فى ضرورة الظهور بمخالفتهم فى اللحى والخضاب والصلاة بالنعال، وأن الاتجاه العام النهائى للرسول هو مخالفتهم، حتى يتميز المسلمون عنهم، وأن الرسول لم يمت حتى أمر بمخالفتهم فى صورة صيام يوم عاشوراء، وذلك بصيام يوم قبله، أو بعده، وأن هذه الروح لا تتفق أبدًا مع أمره بالتحديث عنهم؟.

كيف يأمر بمخالفتهم على هذه الصورة حتى انتقل لجوار ربه ثم يأمر مع ذلك بنقل المعلومات عنهم، وتحديث الناس بها: «وحدثوا عن بنى إسرائيل»، وأيهما أولى باهتمام الرسول فى تربية المسلم وتربية وجدانه: الصلاة بالنعال ومخالفة اليهود أو الأخذ عنهم فيما يحكون من كتبهم؟ «وحدثوا عن بنى إسرائيل»؟

هل يمكن أن يحدث من الرسول اهتمام بمخالفتهم حتى فى هذه الأمور الشكلية المظهرية، ونجده فى الوقت نفسه يأمر بالتحديث عنهم دون حرج؟

وأيهما أخطر على تكوين وجدان المسلم ووجهة نظره؟ حلق اللحى، والصلاة بلا نعال، أم الاستماع لليهود والتحديث عنهم مما يقولونه من معلومات للناس؟ وإشاعة أقوال لا نصيب لها من الصحة غالبًا؟.

لا يمكن – فى فهمى أبدًا – أن يأمر الرسول صحابته بمخالفة اليهود فى هذه الأمور الظاهرية، ويأمرهم أو يبيح لهم فى الوقت نفسه أن يأخذوا من اليهود المعلومات، ويحدثوا عنهم بما يجدون فى كتبهم.

وإذا صح أن هذين الحديثين صدرا عن الرسول، فلابد من صدورهما فى زمنين مختلفين من ناحية الأوضاع فى المدينة وظروف الرسول فيها.

ولا يمكن أن يكون أمر الرسول بالتحديث عن بنى إسرائيل، هو الأمر الأخير فى هذه الناحية، لأنه لا يتفق مع روح المخالفة التى استمرت حتى وفاته.

فإذا قبلنا الحديث، لأن البخارى قبل رواته ووثق بهم، فلابد من القول بأن الرسول قاله فى الفترة الأولى، فى فترة المهادنة، وحب موافقتهم ومودتهم. مع ما فى ذلك أيضًا من تحفظات أشرنا إليها.

أما أن يقول ذلك فى عهد العداء المعروف والمخالفة وإخراج اليهود من المدينة وإلخ.. فهذا غير معقول بالمرة، غير معقول فى هذا الجو أن يجعل الرسول من أصحابه تلاميذ، يتلقون عن اليهود، ويحدثون عنهم بما يتلقونه[1] منهم.

بل المعقول هو غضب الرسول من عمر لأنه وجد فى يديه كتابًا من كتب اليهود.. المعقول أن يقول الرسول لصحابته: لا تسألوهم عن شىء. كما قال لا تتشبهوا بهم، والمعقول - ومع الحلم غاية الحلم - أن يقول الرسول: إذا حدثوكم فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقفوا من معلوماتهم على الحياد على الأقل..

ويعنى هذا ألا تنقلوا عنهم شيئًا ولا تشيعوه. لأن هذا يتلاقى مع سياسة الحرص على مخالفتهم، وسياسة العداء لهم. دون إثارتهم وتحديهم بتكذيبهم، لأنه إذا كنا قد أمرنا بعدم تصديقهم، فلا يجوز لنا أن ننقل عنهم، لاحتمال أن ننقل عنهم أكاذيب، ونروجها بين المسلمين، ونتحمل مسئولية هذا، كما يتحملها الآن أولئك الذين روجوا لها ودونوها فى كتبهم، ونشكو منهم مر الشكوى. ولا أطيق ولا أقبل دينيًا وعقليًا أن يتخلص هؤلاء من المسئولية ويحولوها على الرسول، ويقولوا إنه قال لنا «حدثوا..».

---

(١) ولا يشفع فى ذلك ما يقولونه من أن الرسول قد أذن فى ذلك بعد أن اتضحت معالم الدين، لأنه مع معرفة معالم الدين يبقى الخطر على عقول المسلمين وثقافتهم حين يرددون للناس ما ينقلونه عن الإسرائيليين اليهود، أو عن النصارى من معلومات، أقل ما يقال فيها «إنها غير ثابتة، ورواية المسلمين الثقات من الصحابة وغيرهم لها تعطيها ثقة فى نفوس المسلمين، تجعلهم يقبلونها، ولذلك فأنا لست مع هؤلاء فى محاولتهم هذه للتوفيق.

وهنا أيضًا إشكال:

فإذا كان هذا هو المعقول والمقبول، فكيف نجد بعض الصحابة الذين لهم وزنهم يسألون أهل الكتاب، ويأخذون عن كتبهم بعد وفاة الرسول؟ كما تذكر كل كتب الحديث، وإذا قيل إنهم يعتمدون على أنهم يأخذون عن مثل عبد الله بن سلام الصحابى الذى أسلم، وترك اليهودية، كما يأخذون عن أمثاله فحسب، فهذا غير صحيح ومع ذلك.

فمن أين يأتى لهم عبد الله أو أمثاله بالأجوبة التى طلبوها منهم، إلا من خزينتهم ورصيدهم القديم، الذى عرفوه من قبل أن يسلموا أو عن طريق كتبهم التى كانوا يتداولونها؟ ولذلك لم تسلم من الشبه[1] كما لم يسلموا منها..

هذا هو الذى يحدث فى رأسى صداعًا وفى ذهنى شرودًا ويمثل أمام عقلى لغزًا، ما دمت ملتزمًا بما يرويه البخارى، كرجل موثوق به فيما يرويه.

أما إذا لم ألتزم - وهذا أمر افتراضى - فإننى فى الحال أتوقف عما جاء فى الحديث... «وحدثوا عنى بنى إسرائيل ولا حرج»، أتوقف فى كل الحالات التى

---

(١) وهنا أذكر ما قاله علماء الحديث عن السبب فى قلة الأحاديث النبوية التى رويت عن عبد الله بن عمرو من أنه اتصل بكتب أهل الكتاب، مع أنه كان يكتب الأحاديث عن رسول الله، بعد إذن منه صلى الله عليه وسلم وكتب بذلك ودون صحيفة أو كتابًا سماها «الصادقة» وعاش زمنًا طويلا بعد الرسول: (٥٣) سنة، وتوفى بمصر ٦٣هـ عن ٧٢ عاما، على أحد الأقوال. وهذا ما يذكره زميلنا الدكتور الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه «الحديث والمحدثون» ص١٤٤ ونقله عنه الدكتور الشيخ الذهبى، وكان مما ذكروه عنه أنه كان يكتب عن الرسول، وأن الرسول أذن له فى ذلك وأنه حفظ ونقل عن الرسول كثيرًا من الأحاديث، مع أن ما وصلنا سبعمائة حديث، اتفق الشيخان منها على ١٧، وانفرد البخارى بـ٨، ومسلم بـ٢٠، وذكروا من أسباب قلة المرويات عنه ما وقع له من كتب أهل الكتاب، وأنه كان ينظر فيها، ويحفظ منها جملا، ويحدث بها، فلذلك تجنبًا لتحمل عنه كثير من التابعين ص ١٤٤ «الحديث والمحدثون». وهذا شاهدنا. وإن كانوا قد ذكروا مع هذا من الأسباب اشتغاله بالعبادة أكثر من اشتغاله بالتعليم، وأن أكثر مقامه كان بمصر، أو الطائف، ولم يكن بالمدينة، كأبى هريرة. وعلى أية حال فإن هذا يعطينا فكرة عن سوء نظرة بعض التابعين إلى الأخذ عن أهل الكتاب، وأن ذلك يزعزع الثقة فيمن يأخذ عنهم، فكيف إذن راجت هذه الإسرائيليات كل هذا الرواج، هذا هو المحير، وقد ذكر الدكتور الشيخ محمد أبو شهبة فى كتابه الإسرائيليات ص ٧٦، ٨٠ طبع مجمع البحوث مثل ذلك عن عبدالله بن عمرو وتحاشى بعض الرواة الرواية عنه، نقلا عن فتح البارى جـ١.

مرت بها علاقة الرسول باليهود سلمية وعدائية، لأن الأمر - فى رأيى - لا يصل - مهما تكن العلاقة طيبة، إلى حد أن يأمرنا الرسول بتسليم أنفسنا أو عقولنا كتلامذة لليهود، يعبثون بنا وبعقولنا، ويملئونها بالخرافات والأباطيل..

ومهما يحاول المبررون أن يلتمسوا من مبررات، كما قالوا مثلا: إن الرسول كان موجودا وهو يصحح لهم ما تلقوه عن اليهود، فإن هذا أمر بعيد الاحتمال، وهو يتنافى مع حكمة الرسول وحرصه على سلامة دين أتباعه، ومعلوماتهم على مر الزمان.

بل يتنافى مع عقل وحكمة الإنسان العادى، فلو أن إنسانًا عاديًا عرض نفسه أو ابنه مختارًا، للمرض أو العدوى بمرض خطير، اعتمادًا على أنه يمكن أن يداوى نفسه، أو يداويه هو لكان إنسانًا غريب التفكير، يخالف الحكمة العامة الصادقة لدى جميع العقول: «الوقاية خير من العلاج».

اللهم إلا إذا كان يعمل فى حقل تجربة، وهذه لها حكم خاص، لا يسرى فى كل الحالات العادية. والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن فى حقل تجربة واختبار، حتى يعرض أصحابه للعدوى بالفكر اليهودى. ثم يعطيهم حقن العلاج.. مهما تكن هناك من مهادنة بينه وبين اليهود، وهو يعلم أن الأمة ستقتدى به، فمن يصحح لها بعده؟

وهذا على افتراضنا أن هذا الأمر «وحدثوا»، قد انتهى بانتهاء فترة المهادنة لكنا وجدنا أن بعض الصحابة والتابعين قد استندوا إليه باستمرار حتى بعد وفاة الرسول، مما وجدنا أثره واضحًا فيما نقله علماؤنا وأثبتوه فى كتبهم، التى نتداولها حتى الآن عن كبار الصحابة والتابعين.

وكان عبد الله بن عمرو - الصحابى الجليل - هو المثل الواضح على هذا.. حين أصاب حمل بعيرين من كتب اليهود فى موقعة اليرموك، وكان يحدث ببعض ما فيها - كما تحدث عنه ابن حجر فى فتح البارى شرح البخارى فى الجزء الأول[1] فكيف يحدث هذا؟ لاسيما من الصحابى الورع: ابن عمرو؟

---

(١) الإسرائيليات ص ٨٠ طبع مجمع البحوث للمرحوم الدكتور محمد أبوشهبة الطبعة الأولى.

هل أهملوا: لا تسألوا اليهود عن شيء؟ وأهملوا «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»؟ أو أنهم فهموا النهى عن سؤالهم فهمًا يجيز لهم هذا النقل، مع أن النهى شمل سؤالهم ابتداءً وشمل عدم تصديقهم أو تكذيبهم، فيما يسعون منهم، ويبدو هذا الاحتمال مما ذكره ابن حجر عن ابن بطال عن المهلب حيث قال: «ولا يدخل فى النهى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السالفة[1] وأعتقد أن فهمهم هذا هو الباب الذى دخل علينا منه الكثير من الإسرائيليات».

وفى رأيى وفهمى لحديث «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، إن هذا الذى فهموه بعيد عن جوهر النهى والهدف منه، وبعيد أيضًا عن فهم: «لا تصدقوا ولا تكذبوا» وكأنما أهملوا هذا الحديث ولم يضعوه فى اعتبارهم، فكان من ذلك ما نشكو منه الآن مر الشكوى، من بضاعة الإسرائيليين العلمية الزائفة التى حشونا بها كتبنا وأدمغتنا، وزيفت ثقافتنا. لكن كيف يحصل هذا؟

لابد أن يكون له سند. ولابد أن يكون عند هؤلاء الأسلاف الذين نجلهم ما استندوا إليه فيما فعلوه، ولا يمكن رفض حديث «حدثوا عن بنى إسرائيل»

---

(١) فتح البارى ص ١٠٠ جـ ١٧ وعجبت كيف يجيز المهلب نقل الأخبار عن الأمم السابقة مما لم يأت عندنا نص عنها، مع أنه قال قبل ذلك مباشرة فيما يرويه ابن بطال عن المهلب «هذا النهى إنما هو فى سؤالهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بذلك» أى بما ورد فيه نص «فإذا لم يوجد نص ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم» وغنى أيضًا عن النقل عنهم، لأنهما واحد فى النهاية، وهو الترويج لمعلوماتهم.

واتجاه المهلب إلى النظر والاستدلال – أى الفحص وطلب الدليل على صحة معلوماتهم – هو الاتجاه الصحيح، قبل أن تنقل ونحدث الناس بما يقولون، فلا يحدثهم إلا بما تعقله ويقوم على صحته الدليل. ولا يتفق هذا مع قوله بعد ذلك إننا نحدث عنهم ما نسمعه منهم من أخبار الأمم السابقة مما لم يأت عنه خبر عندنا. ولو أننا راعينا المقام، وأضفنا قيدًا أو اجترارًا لقوله ﷺ: حدثوا ولا حرج» فقلنا: إذا قبله العقل وقام عليه الدليل – كما قال المهلب – لاسترحنا قليلاً؛ لأن هذا يستدعى النظر فى كلام أهل الكتاب، قبل قبوله والتحديث به، وهذا هو مقتضى البحث العلمى النزيه المحايد، لكن هذا لم يكن السابقون الفضلاء يراعونه، بل كانوا ينقلون ما يسمعونه دون بحث ونظر، وإلا لكفينا شر هذا الغثاء والزيد الذى غطى النهر الذى ترتوى منه ثقافتنا. ولقد قام بعض العلماء من اليهود والمسيحيين أنفسهم أخيرًا، بفحص ما نقلته كتبهم من معلومات فحصًا علميًا، وبينوا زيف الكثير منها مما صدرت به كتب كثيرة فى أوربا، وعندنا بالعربية، وكان هذا هو الأجدر بالأوائل بل بالأواخر منا أيضًا، وكان الأجدر ألا نسارع بنقل ما نسمعه وتدوينه فى كتب التفسير والتاريخ، ليدخل فى تكوين ثقافة المسلم وفيه المغشوش الكثير.

مع وجود المبررات لرفضه لو تجرأ إنسان على هذا، لأننا حين نجارى الرافضين له: سنسألهم وعلى أى شىء اعتمد - إذن - الناقلون الطيبون من أسلافنا؟ كعبد الله بن عمرو وغيره وهو لم يقتصر على النقل ممن أسلموا كعبد الله بن سلام، بل كان يحدث الناس بما وجده فى كتبهم التى عثر عليها بعد وفاة الرسول؟

إن الموقف تجاه هؤلاء موقف صعب. والموقف الذى نستريح له فعلا هو موقف عمر رضى الله عنه... وإن كان هو الآخر يثير تساؤلا..

موقف عمر من هذا الموضوع:

فعلى عكس موقف عبد الله بن عمرو وآخرين من الصحابة رضى الله عنهم، من موضوع الإسرائيليات هذا الموقف، نجد عمر بن الخطاب، وموقفه المتشدد فى عدم النقل عن بنى إسرائيل.

إن عمر رضى الله عنه كانت له تجربة فى هذا مع الرسول، ومن هذه التجربة أخذ موقفه المتشدد تجاه النقل عن أهل الكتاب، وقد سبقت الإشارة إلى هذه التجربة مع رسول الله فأثرت فيه.

فقد أتى له برجل من الشام فضربه بقناة كانت معه، فقال الرجل: مالى يا أمير المؤمنين؟. فقال له: أنت الذى نسخت كتاب دانيال؟ فقال: أمرنى بأمر أتبعه. قال انطلق فامحه بالحميم «أى الماء الحار» والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه ولا تُقْرئه أحدًا من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته، أو أقرأته أحدًا لأنْهكَنَّك عقوبة «أى أنزل بك عقوبة شديدة، ثم حكى له ما حصل حين وجد الرسول بيديه كتابًا نسخه عن كتب اليهود، وكيف غضب عليه غضبًا شديدًا، حتى احمرت وجنتاه، وجمع الناس وخطبهم، وقال لهم: لا تتبعوا هؤلاء إلخ[1].

وهذا المنهج العمرى تجاه عدم النقل عن كتبهم، ينطبق أيضًا على النقل سماعًا منهم، أو ممن يتحدث بعلومهم، ولو كان صحابيًا، كعبد الله بن سلام أو

---

(١) الإسرائيليات للدكتور أبوشهبة ص ١٥٣ مصدر سبق ذكره.

عبد الله بن عمرو، ويسد بذلك الباب الذى جاءتنا منه الأخطار، ولو اتبع الجميع هذا الرأى العمرى لاسترحنا من هذا الغثاء الذى ملئت به كتبنا، ولا عجب، فعمر هو الذى قال عنه رسول الله: «ولم أر فريًا يفرى فريه»[١].

ولهذا منع أحد القصاصين أن يقص فى المسجد[٢].. ولكن حب النفوس للغرائب والاطلاع على المجهول، ربما ساعد على عدم الأخذ برأى عمر على مر الزمن، مع تأويلات فى الأحاديث، تساعدهم على إشباع غريزة حب الاستطلاع فيهم، فكان اتجاه عبد الله بن عمرو وغيره من الصحابة والتابعين إلى الأخذ عن أهل الكتاب وعلمهم الممزوج بخرافاتهم، ورواج هذا الاتجاه على مر القرون.

ولئن قلنا إن عبد الله كان يحتاط لدينه لقد فتح الباب لغيره، وقد برهنت القرون التى مرت على أن فتح هذا الباب ورواج هذا الاتجاه، قد أحدث خللا فى العقلية الإسلامية وفى فكر المسلمين ونظرتهم للحياة. وفهمهم للتاريخ، بل للقرآن فهما غير سليم، وأدى ذلك إلى ازدهار الفكر الخرافى، وإنزواء أو ضمور الفكر العلمى الصحيح[٣].. والبضاعة أو العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق».

---

(١) أى قاطعًا يقطع فى الأمور مثل قطعه، وفريًا بفتح الفاء وكسر الراء أى قاطعًا، والفرى قطع الجلد للخرز والإصلاح، وفرى كذبا خلقه، وافتراه اختلقه، والاسم الفرية، وأفراه: قطعه، على وجه الإفساد، وفراه قطعه على وجه الإصلاح (الصحاح) فهى الهمزة التى تقلب الفعل إلى عكسه، مثل قسط ظلم، واقسط: عدل.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٧ والقصاصون بفتح القاف وتشديد الصاد هم الذين يتحدثون للناس بالقصص ويعتمدون فيها على الإسرائيليات غالبًا. وقد صار لهم شأن بعد ذلك غلب على شأن الأئمة وعلمهم الصحيح.

(٣) ومع أننى فى صف الاتجاه العمرى إلا أننى لا أزال أتساءل: هل اتخذ عمر هذا الموقف مع علمه بحديث «حدثوا.. ولا حرج»، وفهمه له فهمًا يغاير ما فهمه عبد الله بن عمرو وآخرون، أو كان لا يعلم به، وهذا بعيد فى نظرى؟.. المهم أن هذا الموضوع صار شبيهًا بلغز أمامى حين أواجه تحليله وأمامى اتجاه عمر رضى الله عنه. وأتساءل: كيف لم يسيطر على الموقف هذا الاتجاه العمرى الحاسم؟ كيف ساد الاتجاه الآخر واتسع مجراه حتى زج فيه الكثير من النفايات الفكرية التى نعرفها وأصبح من واجبنا الثقيل تطهيره منها؟

والمنهج العلمى:

ولقد كان رواج هذا الاتجاه منافيا كذلك للمنهج العلمى الإسلامى السليم، الذى يعتمد عليه الإسلام فى قضاياه الكبيرة والصغيرة، وكان على الذين اتجهوا للإسرائيليات أن يراعوا هذا المنهج، فليس من المنهج العلمى أن تقبل قولاً لا دليل عليه موثوقًا به، سواء كان الدليل عن تجربة أو كان عن كتاب موثوق به كالقرآن والحديث..

ولقد طالب الله المعاندين المتمردين بالدليل والبرهان الذى يبين صحة ما يقولونه أو يفعلونه ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ وغاب عليهم أنهم يمشون وراء ظنونهم وأهوائهم ويقولون قولاً جزافيًا لا دليل عليه، ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾، ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾. فكان الأجدر بالذين نقلوا ألا يبعدوا عن هذا المنهج وألا يتورطوا فى نقل معلومات عن بنى إسرائيل أو غيرهم، لا دليل على صحتها، وألا يضعوا ذلك بجوار آيات القرآن كتوضيح لها، أوتفسير لبعض الظواهر الطبيعية التى جاء ذكرها فى القرآن كالرعد والبرق والزلازل.. إلخ وكأنها تفسيرات موثوق بها.

لقد كان ذلك نوعًا من الغزو الثقافى الإسرائيلى لثقافتنا الإسلامية الأصيلة، جلبناه إلينا باختيارنا وجهودنا، مما يجعلنا نسميه بالاستغزاء- كما قلنا من قبل- ولقد كانت للمسلمين السيادة والقوة فى الحكم ومع ذلك كانت هناك نواح أو كان هناك فراغ فى بعض المعلومات والأخبار عنى البعض بسده، فلجئوا إلى المعلومات الزائفة عند اليهود، ولم يلجئوا إلى طرق العلم الصحيحة لسده، ولم يستعملوا المنطق الإسلامى فى غربلة ما وجدوه، فكان هذا الذى يشبه الطوفان، أو الفيضان، بما يحمله معه من عكارة، ونفايات، مما أثر ولا يزال يؤثر حتى الآن على تفكيرنا، وتتغذى عليه ثقافتنا، ويلون نظرتنا إلى الأمور، ويصيب نظرنا «بالحول» وعدم الرؤية الواضحة للحقائق.

غزو واستغزاء آخر

رأيت فيما تقدم أن أول ثقافة قابلت الإسلام واصطدمت به هى الثقافة اليهودية، وقد كان لليهود فى مجتمع المدينة، مكانة علمية وثقافية يمتازون بها عن العرب حولهم، ولذلك كان العرب ينظرون إليهم، على أنهم فى مستوى علمى أعلى وأرقى منهم.

وقد أخرج الإمام أبو داود حديثًا[1] جاء فيه: «كان هذا الحى من الأنصار - وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود، وهم أهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلًا عليهم فى العلم وكان يقتدون بكثير من فعلهم قبل الإسلام».

ومع أن الإسلام ارتفع بمستوى العرب الذين دخلوا الإسلام، وبعث فيهم روح الاعتزاز بدينهم، إلا أن هذا الاتجاه من العرب قبل الإسلام تجاه اليهود، لم ينقطع تمامًا بدخولهم الإسلام، بل ظل الأثر النفسى مترسبًا فيهم.. ولذلك رأينا عمر بن الخطاب مع جلالة قدره، ورسوخ قدمه، يحمل ورقات عن اليهود يذهب بها للرسول، فينهره، ورأينا المسلمين يتجمعون حول اليهود يسمعون منهم تفسير التوراة بالعربية، فينهاهم الرسول، ورأيناهم يسألون اليهود عن أشياء فيقول الرسول: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء»..

ورأينا ما نقلته لنا كتب الأحاديث الصحيحة غير هذا من أحاديث أخرى، ذكرناها ووقفنا عندها نحللها، ورأينا اختلاف الصحابة أنفسهم، تجاهها، مما ذكرناه عن عبدالله بن عمرو ومن كان معه فى اتجاهه، وعن عمر رضى الله عنهم جميعًا. ولكل وجهة..

وكانت النتيجة هذا الغزو الإسرائيلى الثقافى الذى حشده فى كتبنا أكابر

---

(١) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٣٣١ الطبعة الثانية وقد ذكر ابن خلدون ذلك أيضًا مع تحليله فى مقدمته.

طيبون فضلاء منا، مما لا يزال ماثلاً فيما بين أيدينا من كتب التفسير وغيرها، يلوث ثقافتنا الأصلية..

وكان هذا من أخطر ما أصيبت به ثقافتنا منذ عهد طفولتها، وإن كان هذا كله لم يمس المبادئ والتعاليم، ولكنه جاء على الهامش، فيما يتصل بالتاريخ، أو ببعض الظواهر الكونية مما سبق ذكره..

وصار نهر ثقافتنا الواسع الهادر، يحمل الماء العذب الفرات، ويحمل معه كذلك عكارات ونفايات..

وتسير الأيام والسنون، ويخرج المسلمون من جزيرتهم حاملين الهدى والرشاد لمن حولهم شرقًا وغربًا، فى بلاد سادتها حضارات وثقافات عريقة: فارسية وهندية، ورومانية، ويونانية، ووجد المسلمون فيها علمًا ونظمًا وفنونًا وأديانًا.. وجدوا مجتمعات حضارية لم يعهدوها فى حياتهم بجزيرتهم.. وكانت معهم ثقافتهم وشخصيتهم الإسلامية يحرصون عليها وينظرون لكل جديد حولهم من خلالها.. يقيسونه بمقاييسها..

وكانوا هم الأقوياء الفاتحين المعتزين بدينهم وثقافتهم، فظلوا محافظين عليها يقبلون مما وجدوه أمامهم، مالا يتناقض معها، ويستفيدون مما لا ينقضها..

ومرت أيام الخلفاء الراشدين، وجاءت بعدها أيام الدولة الأموية، والشخصية الإسلامية العربية هى الشخصية السائدة.. والمسلمون العرب مشغولون بحروب وثورات داخلية وخارجية، إما لتوطيد حكم الدولة أو لزعزعته، وإما لتوسيع رقعتها، ونشر الإسلام فى بلاد لم يكن قد وصل إليها، حتى وصلت الرقعة الإسلامية إلى الأندلس غربًا، وإلى الهند والبلاد الجنوبية من روسيا الآن شرقًا، والدولة الأموية تؤكد على إبراز شخصيتها وثقافتها الإسلامية العربية، طوال مدة حكمها حتى اتهموها ظلمًا بالتحيز الممقوت للعرب.

وكانت البلاد التى فتحها المسلمون من الشمال الأفريقى والشام، والعراق وأرض فارس، بلادًا تموج فيها الحضارة أو الثقافة اليونانية منذ أيام الإسكندر والرومانية والفارسية، وكانت للثقافة والعلوم اليونانية مراكز إشعاع ومدارس فى

الاسكندرية وحران ونصيبين وانطاكيا والرها، وجنديسابور، حيث تلتقى بالفارسية والهندية، وقد تولت هذه المدارس نقل كثير من كتب اليونان إلى الشرق بلغتهم بواسطة النساطرة واليعاقبة فى الشام، وعلماء مدرسة الاسكندرية وغيرهم.

وبذلك جاء الفتح الإسلامى، ووجد الحضارة والثقافة اليونانية لها أرضها، ولها حماتها كما وجدوا فى فارس الحضارة والثقافة الفارسية، وجارتها الهندية، وفى كل من هذه الثقافات والحضارات أفكار وعلوم نظرية وعملية.. لم يعمل المسلمون على مصادرتها، بل تركوا لها ولرجالها المجال حيث كانت حرية الفكر متوفرة، ولقد كان من الطبيعى أن يحس المسلمون هذه الحضارات والثقافات، وما أتت به تحمله، وأن يبدءوا -لاسيما علماؤهم- بالتعرف عليها وعلى علومها..

فرأينا خالد بن يزيد بن معاوية يبتعد عن مجال الحكم ويتجه للعلم وخاصة الكيمياء، التى تحول المعادن إلى ذهب - كما فهم - ويتصل بمدرسة الإسكندرية لتعلم الكيمياء، فترجمت له بعض الكتب، وكان هذا حادثًا فرديًا.. حتى جاءت الدولة العباسية بعد أن قضت على الدولة الأموية بمساعدة المسلمين الفرس، واستتب لها الحكم سريعًا واستقرت الأمور، وغلب العنصر الفارسى وأثر فى حكمها لا سيما بعد سنين من قيامها.

وبدأ الخلفاء يتطلعون بواسطة من حولهم إلى التعرف على الحضارات والثقافات اليونانية والفارسية والهندية بشكل أوسع.. وكان لابد لهم من ترجمة كتبها بصورة أكثر فاعلية عما كان من قبل، فاتجهوا إلى علماء هذه المدارس، ليقوموا بالترجمة إلى العربية، فنقلوا إليها أهم كتب أرسطو وشروحها، بما فيها المنطق، وأهم كتب أفلاطون، وجالينوس فى الطب، وغير ذلك مما انتجه العقل اليونانى، كما ترجمت كتب فارسية وهندية، كمثل كليلة ودمنة [1]، وغيرها..

---

(١) ترجمها عبد الله بن المقفع من اللغة الفهلوية وقد قتل عام ١٤٢ أو ١٤٥ هـ وكانت منقولة من قبل من الهندية إلى الفهلوية وبواسطة الترجمة من الفارسية تأثر الشعر والأدب وغيرهما. كما أثرت الثقافة الهندية فى التصوف وغيره من الرياضيات والفلك، وكان العرب قد قاموا بترجمة الكتب الهندية بعد أن اتصلوا بالهند، وعن طريق الهنود الذين جاءوا للبلاد العربية فتولى العرب الترجمة من الهندية.

حتى جاء المأمون فنظم أمور الترجمة، وراسل ملوك الروم ليمدوه بما لديهم من تراث ليعمل على ترجمته، فنشطت الترجمة واتسعت، ووجدت هذه المواد المترجمة إقبالاً عليها من المسلمين.. ليزدادوا علمًا، وإحاطة بما لدى غيرهم..

وكان الجانب الذى عنى به المسلمون وحكامهم من هـذا التراث هـو الجانب العقلى والعملى كالمنطق والبحث عن موجد الكون، وتفسير مظاهره، والطب والفلك والرياضيات وما يشبه ذلك..

أما الجانب الأدبى وكل ما يتصل بالعاطفة فلم يعنوا به تمامًا كغيره، لاختلاف المقاييس والمشارب فى هذا النوع من التراث. وإن كنا لا ننفى التأثر بهذا الجانب، أما الناحية الدينية فى هذه الثقافات فقد رفضوها.

وبهذا أصبح لهذه الحضارات والثقافات - ولا سيما اليونانية - سوقها الرائجة لدى المسلمين وفى مقدمتهم حكامهم..

وكان المسلمون وهم أقوياء به حين اتجهوا لهذا، وفى مقدمتهم حكامهم لهم الكلمة فيما يقبل، وما لا يقبل منها، وكانت غايتهم جميعًا الاستفادة مما لدى الغير من علوم نافعة، فالحكمة ضالة المؤمن، والحكام يريدون أن يرقوا بأمتهم..

وبهذا دخلت الفلسفة والعلوم اليونانية سوق العلم الإسلامية، وأقبل العلماء على منطق أرسطو، وعلى مباحث الإلهيات وعلى الطب والفلك مما يتوقعون منه أن يوسع مداركهم ويزيدهم علمًا يخدمون به دينهم أو حياتهم. وإن اختلفت مشاربهم.

وأتيح لأهل المذاهب والآراء المختلفة أن يعرضوا مذاهبهم، ويجادلوا عنها، فى جو من حرية الرأى، عنى الحكام بتوفيره للجميع..

وقد افتتن المسلمون بهذه التيارات الجديدة، وما فيها من علم وأفكار، سواء منها الفارسية ومشجعوها من البرامكة أو غيرهم بعد نكبتهم، أو اليونانية والهندية..

كما افتتنوا بمظاهر الحضارة التى وفدت عليهم كذلك.. وأصبح ذلك كله عندهم

«موضة» يتشحون بها سواء عن اقتناع أو لحب الظهور والتظرف من قبيل: «خالف تعرف» كما يحصل عندنا الآن فيذكر الأغانى «أن محمد بن زياد كان يظهر الزندقة والمجون تظارفًا»، فقال فيه ابن مناذر

يـــابن زيـــاد يـــا أبا جعفر   أظهرت دينًا غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى   بـاطن إسـلام فتى عف
لست بـــزنـديق ولكنـــما   أردت أن توسم بالظرف

وقال غيره:

تـــزنـــدق معلنًـــا لـيقـــول قـــوم   إذا ذكـــروه زنـــديـــق ظـــريـــف
فقـــد بقى التـزنـــدق فيـه وســـمًا   ومـاقيـل الـظريف ولا اللطيف[1]

وهذا شبيه بما يحصل عندنا فى هذه الأيام من بعض الناس - ولا سيما الشباب - من الجهر بآراء أو أعمال مخالفة للدين والتقاليد، أو من محاكاة الغربيين ليقال عنهم: إن لهم رأيًا وأنهم متحضرون.. إلخ..

وهذا يدل على مدى تأثر الوسط الإسلامى بالثقافات الوافدة مع نزوع إلى الترف والمجون. على أن أثر هذه التيارات ظهر حقيقة فى الأوساط العلمية بشكل مفيد وكبير غالبًا، يتحدث عنه الأستاذ أحمد أمين فى ضحى الإسلام[2] فيقول:

«كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير فى المسلمين، ومما زاد من أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية، فتسربت الثقافة اليونانية إليها وصبغتها صبغة خاصة، كان لها تأثير فى الشكل وفى الموضوع»..

وتحدث عن الشكل فقال: «إنه يرجع لتأثير المنطق اليونانى الأرسطى على أسلوب المتكلمين والفقهاء والنحويين».

ويحدث عن الموضوع فقال: إنها أثرت تأثيرًا كبيرًا فى تعاليم المتكلمين..

---

(١) ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٤٩ مصدر سبق ذكره.
(٢) ص ٢٧٤.

obeikandi.com

ولا سيما لدى المعتزلة، وفى التصوف والفلسفة الإسلامية.. كما كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البلاغة العربى..

ثم يعقب على ما بسطه من كلام فى هذه الناحية فيقول[١]: وهذا هو الذى يعنينا:

«ولكن مما لا شك فيه أن العرب أو المسلمين استخدموا ما أخذوا من الثقافة اليونانية استخدامًا صالحًا، وأخذوا منها ما أخذوا ثم بنوا عليه، وزادوا فيه وابتكروا[٢]، ولم يكن موقفهم موقف الناقل فحسب، وكان كثير منهم ينظر بإحدى عينيه إلى الثقافة اليونانية، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية والثقافة العربية، فيختار من الأولى ما يتفق والثانية، ويؤلف منها مزيجًا لا هو يونانى بحت، ولا هو إسلامى بحت إلخ..».

وهذا يعنى أن المسلمين قد قاموا بعملية تشبه عملية التطعيم للأشجار بما هو نافع للتطعيم، حسب اجتهادهم، ليوجدوا نوعًا يجمع محاسن النوعين، فلم يستعملوا الثقافة اليونانية أو الفارسية للهدم، أو لتغيير المعالم الأصلية فى الثقافة أو الروح العربية الإسلامية، وإنما لخدمتها، ووقف علماؤنا المخلصون سدًّا أمام مثالب التيار الغريب ودعاته، على حين لم يمنعوا ما فيه فائدة منه.

ولا يزال المنطق الأرسطى الذى نقله المسلمون هو المنطق الذى ندرسه الآن، وإن وقف ابن تيميه ومدرسته ضده وجاء «ديكارت» وفرنسيس بيكون» فعابوا هذا المنطق الأرسطى كابن تيمية، ووضعوا «المنطق الجديد» منطق الاستقراء والتجربة، ولا تزال الفلسفة الإسلامية المطعمة بالفلسفة اليونانية أو الهندية والفارسية والتى أنتجها فلاسفتنا الإسلاميون هى التى ندرسها، وهى التى دافع عنها دفاعًا حارًّا علم من أكبر علمائنا السابقين، وهو ابن رشد فى كتابه «تهافت

---

(١) ص ٢٧٨.

(٢) وسبقوا العلم الحديث فى ابتكارهم ولاسيما فى الطب فاهتدوا إلى أن الأوبئة تنشأ عن تعفن، وتنتقل عدواها عن طريق الهواء والمخالطة، وسموا الأمراض المعدية بالسارية وكانوا أول من عرفوا تفتيت الحصاة فى المثانة، واستخدام المخدر فى العمليات، وشكل أظافر المصدورين، والبول السكرى والحصية، واكتشفوا بعض العناصر، كحامض الآزوت والكبريت إلى غير ذلك مما تحدث به الباحثون فى أثر العرب فى نهضة أوربا العلمية، وألفت فيه الكتب...

التهافت»، الذى رد به على كتاب «تهافت الفلاسفة» للإمام الغزالى، حين هاجم الفلسفة وبين زيفها.. وهكذا..

وقد استعمل علماؤنا الأجلاء فى تلك العصور ما استفادوه من علم المنطق وغيره فى الرد المفحم على الذين تهجموا على الإسلام وقضاياه، حيث عاملوهم بنفس سلاحهم الهجومى، وكان لهؤلاء فضل عظيم فى الدفاع عن الإسلام، حين تسلحوا بأسلحة الثقافة الوافدة، وردوا على الذين استعملوها للتهجم على الإسلام وكان من أبرز هؤلاء المعتزلة وإن لم يكونوا وحدهم..

الحياة الاجتماعية:

وبجوار التأثر بالعلوم، كان هناك تأثر آخر عن طريق الحياة الاجتماعية فى الوسط المتأثر بحضارة اليونان والرومان والفرس، وهو مجتمع جديد لم يألفه العرب، قبل أن يخرجوا من الجزيرة. ولا شك أن المعايشة والاختلاط بالغير يؤدى إلى نوع من امتزاج الثقافتين الإسلامية وغيرها فى الحياة الاجتماعية واقتباس مالدى الغير مما يستحسن أو تدعوا الحاجة إليه». وقد رأينا معاوية وهو حاكم فى دمشق يتخذ من الحجاب ومظاهر الحكم، ما لم يتعوده المسلمون، ولما زاره الخليفة عمر، وأبدى ملاحظة عليه من هذه الناحية، إعتذر له معاوية بأنه فى بلاد تعودت ذلك فى حكامها الروم من قبل، وليس له إلا أن يفعل ذلك.. فسكت عمر وتركه وقال: «لا آمرك ولا أنهاك».

فى حين كان يحاسب الولاة فى جزيرة العرب على أقل من هذا..

ولانظن إلا أن مظاهر الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد المفتوحة كانت متقدمة عما ألفه العرب فى جزيرتهم، مما جعل الفاتحين يأخذون من هذه المظاهر فى نمط وأسلوب حياتهم ما أعجبهم.

وكان ذلك تطعيمًا لأسلوب الحياة لا يلحق ضررًا بجوهر الثقافة العربية الإسلامية.. وإن ألحق بها أخيرًا مظاهر من الترف، قد يضيق بها الإسلام، مما جعل بعض العلماء والشعراء يركزون على الزهد والدعوة إليه، وعلى التصوف والعزوف عن الحياة كهجوم مضاد.

ولكن بعد هذا كله نقول: إن هذا الغزو الثقافى أو «الاستغزاء» مع ما صاحبه من غناء رفضوه، قد أفاد المسلمين كثيرًا، وإنه هيأهم لكى يأخذوا مكانهم فى صنع حضارة إسلامية، فى شتى نواحى الحياة الفكرية والعملية.. دون التخلى عن ثقافتهم الأصيلة.. ولذلك كانت حضارة لها طابعها الإسلامى وشخصيتها الإسلامية، ولها أثرها العظيم بعد ذلك فى الغرب وتقدمه علميًّا كما نعرف.

ولذلك نمر سريعًا ولا نقف عند هذا «الاستغزاء» الذى كان بصنع المسلمين أنفسهم، ونقلهم له، وخرجوا منه سالمين، لننتقل إلى دور آخر من أدوار الغزو الثقافى والحقيقى، الذى دبر له أعداء غزاة، وخططوا له، وساعدهم على السير فى تنفيذ مخططاتهم ما أصاب المسلمين عامة من ضعف فى الحكم، وما منيت به ثقافتهم تبعًا لذلك من ضعف المناعة بسبب حكامهم غير العرب، وقد سهل هذا لأعداء الإسلام والمسلمين أن ينفذوا إلى نفوس المسلمين وإلى ثقافتهم الأصيلة.. ويسلطوا عليها معاولهم على أمل أن تلفظ أنفاسها بعد أن أخفقوا فى بقاء السيطرة على البلاد الإسلامية فى الشام، وعادوا مقهورين إلى أوربا بعد قرنين من الزمان استولوا فيهما على بلاد الشام..

obeikandl.com